في ظلال القرآن

الجزء السادس والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

في ظلال القرآن

الجزء السادس والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه



من سورة الأحقاف ومحمد والفتح والحجرات وق

سورة الأحقاف مكية
وآياتها ٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ؟ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا ، أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ؟ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ، وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ؟ .

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ : هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرَاهُ ؟ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ : مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ، وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ، فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ؟ إِنَّ اللَّهَ

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا: لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ. وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ: هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً، وَهٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيًّا، لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ.

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللهُ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ».

هذه السورة المكية تعالج قضية العقيدة .. قضية الإيمان بوحدانية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه ومافيه . والإيمان بالوحي والرسالة وأن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول سبقته الرسل ، أوحى إليه بالقرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب. والإيمان بالبعث وماوراءه من حساب وجزاء على ما كان فى الحياة الدنيا من عمل وكسب ومن إحسان وإساءة .

هذه الأسس الأولى التى يقيم عليها الإسلام بناءه كله . ومن ثم عالجها القرآن فى كل سوره المكية علاجا أساسيا ، وظل يتكىء عليها كذلك فى سوره المدنية كلما هم بتوجيه أو تشريع للحياة بعد قيام الجماعة المسلمة والدولة الإسلامية. ذلك أن طبيعة هذا الدين تجعل قضية الإيمان بوحدانية الله سبحانه ، وبعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والإيمان بالآخرة ومافيها من جزاء.. هى المحور الذى تدور عليه آدابه ونظمه وشرائعه كلها ، وترتبط به أوثق ارتباط ؛ فتبقى حية حارة تنبعث من تأثير دائم بذلك الإيمان .

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل ؛ وتوقع فيها على كل وتر ؛ وتعرضها فى مجالات شتى ، مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية . كما أنها تجعلها قضية الوجود كله ـ لاقضية البشر وحدهم ـ فتذكر طرفا من قصة الجن مع هذا القرآن كذكرها لموقف بعض بنى إسرائيل منه . وتقيم من الفطرة الصادقة شاهدا كما تقيم من بعض بنى إسرائيل شاهدا . سواء بسواء .

ثم هى تطوف بتلك القلوب فى آفاق السماوات والأرض ، وفى مشاهد القيامة فى الآخرة . كما تطوف بهم فى مصرع قوم هود وفى مصارع القرى حول مكة. وتجعل من السماوات والأرض كتابا ينطق بالحق كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء.

* * *

ويمضى سياق السورة فى أربعة أشواط مترابطة ، كأنها شوط واحد ذو أربعة مقاطع .

يبدأ الشوط الأول وتبدأ السورة معه بالحرفين : حا . ميم . كما بدأت السور الست قبلها. تلبها الإشارة إلى كتاب القرآن والوحى به من عند الله : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » . . وعقبها مباشرة الإشارة إلى كتاب الكون ، وقيامه على الحق ، وعلى التقدير والتدبير : «ماخلقنا السماوات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى » . . فيتوافى كتاب القرآن المتلو وكتاب الكون المنظور على الحق والتقدير: «والذين كفروا عما أنذروا معرضون»

وبعد هذا الافتتاح القوى الجامع يأخذ فى عرض قضية العقيدة مبتدئا بإنكار ماكان عليه القوم من الشرك الذى لايقوم على أساس من واقع الكون ، ولايستند إلى حق من القول ، ولامأثور من العلم : « قل : أرأيتم ماتدعون من دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السماوات ؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا أوأثارة من علم إن كنتم صادقين » . . ويندد بضلال من يدعو من دون الله من لايسمع لعابده ولايستجيب. ثم هو يخاصمه يوم القيامة ويبرأ من عبادته فى اليوم العصيب !

ويعرض بعد هذا سوء استقبالهم للحق الذى جاءهم به محمد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقولهم له : « هذا سحر مبين » . . وترقيهم فى الادعاء حتى ليزعمون أنه افتراه . ويلقن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يرد عليهم الرد اللائق بالنبوة ، النابع من مخافة الله وتقواه ، وتفويض الأمر كله إليه فى الدنيا والآخرة : « قل : إن افتريته فلاتملكون لى من الله شيئا . هوأعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيدا بينى وبينكم ، وهو الغفور الرحيم. قل : ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى مايفعل بى ولابكم ، إن أتبع إلامايوحى إلى، وماأنا إلانذير مبين» . . ويحاججهم بموقف بعض من اهتدى للحق من بنى إسرائيل حينما رأى فى القرآن مصداق مايعرف من كتاب موسى ــ عليه السلام ــ: « فآمن واستكبرتم » . . ويندد بظلمهم بالإصرار على التكذيب بعد شهادة أهل الكتاب العارفين : « إن الله لايهدى القوم الظالمين » . .

ويستطرد فى عرض تعلاتهم ومعاذيرهم الواهية عن هذا الإصرار ، وهم يقولون عن المؤمنين : « لوكان خيرا ماسبقونا إليه » . . ويكشف عن علة هذا الموقف المنكر : « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم ! » .

ويشير إلى كتاب موسى من قبله ، وإلى تصديق هذا القرآن له ، وإلى وظيفته ومهمته : « لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » . .

ويختم هذا الشوط بتفصيل هذه البشرى لمن صدق بالله واستقام على الطريق : « إن الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » ..

ويعرض الشوط الثانى نموذجين للفطرة البشرية : المستقيمة والمنحرفة ، فى مواجهة قضية العقيدة . ويبدأ معهما من النشأة الأولى ، وهما فى أحضان والديهم . ويتابع تصرفهما عند بلوغ الرشد والتبعة والاختيار . فأما الأول فشاعر بنعمة الله بار بوالديه ، راغب فى الوفاء بواجب الشكر ، تائب ضارع مستسلم منيب : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة،وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » .. وأما الآخر فعاق لوالديه كما هو عاق لربه ، وهو جاحد منكر للآخرة ، وهما به ضيقان متعبان: « أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين » ..

ويختم هذا الشوط بمشهد سريع من مشاهد القيامة يعرض فيه مصير هذا الفريق :«ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون » ..

والشوط الثالث يرجع بهم إلى مصرع عاد،عند ما كذبوا بالنذير. ويعرض من القصة حلقة الريح العقيم ، التى توقعوا فيها الرى والحياة ، فإذا بها تحمل إليهم الهلاك والدمار ، والعذاب الذى استعجلوا به وطلبوه : « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا ، بل هو مااستعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها ، فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين » .. ويلمس قلوبهم بهذا المصرع ، وهو يذكرهم بأن عادا كانوا أشد منهم قوة وأكثر ثروة : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولاأبصارهم ولاأفئدتهم من شىء. إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .. ويذكرهم فى نهاية الشوط مصارع ماحولهم من القرى ، وعجز آلهتهم المدعاة عن نصرتهم ، وظهور إفكهم وافترائهم . لعلهم يتأثرون ويرجعون ..

ويتناول الشوط الرابع قصة نفر من الجن مع هذا القرآن ، حين صرفهم الله لاستماعه ، فلم يملكوا أنفسهم من التأثر والاستجابة ، والشهادة له بأنه الحق : « مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » .. وعادوا ينذرون قومهم ويحذرونهم ويدعونهم إلى الإيمان:

« ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم . ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء، أولئك فى ضلال مبين » . .

وتتضمن مقالة النفر من الجن الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح الناطق بقدرة الله على البدء والإعادة : « أولم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ؟ بلى إنه على كل شىء قدير » . .

وهنا يلمس قلوبهم بمشهد الذين كفروا يوم يعرضون على النار، فيقرون بما كانوا ينكرون ، ولكن حيث لامجال لإقرار أويقين !

وتختم السورة بتوجيه الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى الصبر وعدم الاستعجال لهم بالعذاب، فإنما هو أجل قصير يمهلونه ، ثم يأتيهم العذاب والهلاك : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولاتستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلاساعة من نهار . بلاغ . فهل يهلك إلاالقوم الفاسقون ؟ » . .

والآن نأخذ فى تفصيل هذه الأشواط . .

***

« حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . ماخلقنا السماوات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، والذين كفروا عما أنذروا معرضون » . .

هذا هو الإيقاع الأول فى مطلع السورة ؛ وهو يلمس العلاقة بين الأحرف العربية التى يتداولها كلامهم ، والكتاب المصوغ من جنس هذه الأحرف على غير مثال من كلام البشر ، وشهادة هذه الظاهرة بإنه تنزيل من الله العزيز الحكيم . كما يلمس العلاقة بين كتاب الله المتلو المنزل من عنده ، وكتاب الله المنظور المصنوع بيده . كتاب هذا الكون الذى تراه العيون ، وتقرؤه القلوب .

وكلا الكتابين قائم على الحق وعلى التدبير . فتنزيل الكتاب «من الله العزيز الحكيم » فهو مظهر للقدرة وموضع للحكمة . وخلق السماوات والأرض ومابينهما متلبس بالحق : « ماخلقنا السماوات والأرض ومابينهما إلابالحق » .. وبالتقدير الدقيق: « وأجل مسمى » تتحقق فيه حكمة الله من خلقه ، ويتم فيه ماقدره له من غاية .

وكلا الكتابين مفتوح ، معروض على الأسماع والأنظار ، ينطق بقدرة الله، ويشهد بحكمته،

ويشى بتدبيره وتقديره ، ويدل كتاب الكون على صدق الكتاب المتلو ، وما فيه من إنذار وتبشير .. « والذين كفروا عما أنذروا معرضون » .. وهذا هو العجب المستنكر فى ظل تلك الإشارة إلى الكتاب المنزل والكتاب المنظور !

والكتاب المنزل المتلو يقرر أن الله واحد لايتعدد ، وأنه رب كل شىء ، بما أنه خالق كل شىء ، ومدبر كل شىء ، ومقدر كل شىء . وكتاب الكون الحى ينطق بهذه الحقيقة ذاتها ؛ فنظامه وتنسيقه وتناسقه كلها تشهد بوحدانية الصانع المقدر المدبر ، الذى يصنع على علم ، ويبدع على معرفة ، وطابع الصنعة واحد فى كل مايصنع ومايبدع . فأنى يتخذ الناس آلهة من دونه ؟ وماذا صنع هؤلاء الآلهة وماذا أبدعوا ؟وهذا هو الكون قائما معروضا على الأنظار والقلوب ؛ فماذا لهم فيه ؟ وأى قسم من أقسامه أنشأوه ؟

« قل : أرأيتم ماتدعون من دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السماوات ؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا ، أوأثارة من علم ، إن كنتم صادقين » . .

وهذا تلقين من الله سبحانه لرسوله ، صلى الله عليه وسلم ، ليواجه القوم بشهادة كتاب الكون المفتوح . الكتاب الذى لايقبل الجدل والمغالطة — إلا مراء ومحالا — والذى يخاطب الفطرة بمنطقها ، بما بينه وبين الفطرة من صلة ذاتية خفية ، يصعب التغلب عليها ومغالطتها .

« أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ » . .

ولن يملك إنسان أن يزعم أن تلك المعبودات — سواء كانت حجرا أم شجرا أم جنا أم ملائكة أم غيرها — قد خلقت من الأرض شيئا ، أو خلقت فى الأرض شيئا . إن منطق الفطرة . منطق الواقع . يصيح فى وجه أى ادعاء من هذا القبيل .

« أم لهم شرك فى السماوات ؟ » . .

ولن يملك إنسان كذلك أن يزعم أن لتلك المعبودات شركة فى خلق السماوات أو فى ملكيتها . ونظرة إلى السماوات توقع فى القلب الإحساس بعظمة الخالق ، والشعور بوحدانيته ؛ وتنفض عنه الانحرافات والترهات . والله منزل هذا القرآن يعلم أثر النظر فى الكون على قلوب البشر ؛ ومن ثم يوجههم إلى كتاب الكون ليتدبروه ويستشهدوه ويستمعوا إلى إيقاعاته المباشرة فى القلوب .

ثم يأخذ الطريق على ما قد يطرأ على بعض النفوس من انحراف بعيد . فقد يصل بها هذا

الانحراف إلى أن تزعم هذا الزعم أو ذاك بلا حجة ولا دليل . يأخذ عليها الطريق ، فيطالبها بالحجة والدليل ؛ ويعلمها فى الوقت ذاته طريقة الاستدلال الصحيح ؛ ويأخذها بالمنهج السليم فى النظر والحكم والتقدير :

« ائتونى بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين » . .

فإما كتاب من عند الله صادق . وإما بقية من علم مستيقن ثابت . وكل الكتب المنزلة قبل القرآن تشهد بوحدانية الخالق المبدع المدبر المقدر ؛ وليس فيها من كتاب يقر خرافة الآلهة المتعددة ، أو يقول بأن لها فى الأرض خلقا أو فى السماوات شركا ! وليس هنالك من علم ثابت يؤيد مثل ذلك الزعم المتهافت .

وهكذا يواجههم القرآن بشهادة هذا الكون . وهى شهادة حاسمة جازمة . ويأخذ عليهم طريق الادعاء بلا بينة . ويعلمهم منهج البحث الصحيح . فى آية واحدة قليلة الكلمات، واسعة المدى ، قوية الإيقاع ، حاسمة الدليل .

ثم يأخذ بهم إلى نظرة موضوعية فى حقيقة هذه الآلهة المدعاة ، منددا بضلالهم فى اتخاذها ، وهى لاتستجيب لهم ، ولاتشعر بدعائهم فى الدنيا ؛ ثم هى تخاصمهم يوم القيامة ، وتنكر دعواهم فى عبادتها :

« ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ؟ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » . .

وقد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة . إما لذاتها وإما باعتبارها تماثيل للملائكة . وبعضهم يتخذ الأشجار ،وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أوالشيطان . . وكلها لا تستجيب لداعيها أصلا . أولاتستجيب له استجابة نافعة . فالأحجار والأشجار لاتستجيب . والملائكة لايستجيبون للمشركين .والشياطين لاتستجيب إلا بالوسوسة والإضلال . ثم إذا كان يوم القيامة وحشر الناس إلى ربهم ، تبرأ هؤلاء وهؤلاء من عبادهم الضالين . حتى الشيطان كما جاء فى سورة أخرى : « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى. فلاتلومونى ولوموا أنفسكم، ماأنا بمصرخكم وماأنتم بمصرخىّ . إنى كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم » . .

وهكذا يقفهم القرآن وجها لوجه أمام حقيقة دعواهم ومآلها فى الدنيا والآخرة . بعدماوقفهم

أمام الحقيقة الكونية التى تنكر هذه الدعوى وترفضها . وفى كلتا الحالتين تبرز الحقيقة الثابتة . حقيقة الوحدانية التى ينطق بها كتاب الوجود ، وتوجبها مصلحة المشركين أنفسهم ، ويلزمهم بها النظر إلى مآلهم فى الدنيا والآخرة .

وإذا كان القرآن يندد بضلال من يدعون من دون الله آلهة لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة ؟ وكان هذا يعنى المعبودات التاريخية التى عرفتها الجماعات البشرية عند نزول هذا القرآن ، فإن النص أوسع مدلولا وأطول أمدا من ذلك الواقع التاريخى . فمن أضل ممن يدعو من دون الله أحدا فى أى زمان وفى أى مكان ؟ وكل أحد ـ كائنا من كان ـ لا يستجيب بشىء لمن يدعوه ، ولا يملك أن يستجيب . وليس هناك إلا الله فعال لما يريد .. إن الشرك ليس مقصورا على صوره الساذجة التى عرفها المشركون القدامى . فكم من مشركين يشركون مع الله ذوى سلطان ، أو ذوى جاه ، أو ذوى مال ؛ ويرجون فيهم ، ويتوجهون إليهم بالدعاء . وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعائهم استجابة حقيقية . وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . ودعاؤهم شرك . والرجاء فيهم شرك . والخوف منهم شرك . ولكنه شرك خفى يزاوله الكثيرون ، وهم لا يشعرون .

* * *

ثم يمضى السياق يتحدث عن موقفهم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما جاءهم به من الحق . بعد ما تحدث عن واقعهم وتهافت عقيدة الشرك . ويقرر قضية الوحى كما قرر قضية التوحيد :

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم : هذا سحر مبين . أم يقولون : افتراه ؟ قل : إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيدا بينى وبينكم ، وهو الغفور الرحيم . قل : ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، وما أنا إلا نذير مبين . قل : أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين . وقال الذين كفروا للذين آمنوا : لو كان خيرا ما سبقونا إليه . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم . ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » . .

يبدأ الحديث عن قضية الوحى بترذيل مقولتهم عنه ، واستنكار استقبالهم له ، وهو آيات

« بينات » لا لبس فيها ولا غموض ، ولا شبهة فيها ولا ريبة . ثم إنه « الحق » الذى لا مرية فيه. وهم يقولون لتلك الآيات ولهذا الحق « هذا سحر مبين » .. وشتان بين الحق والسحر. وهما لا يختلطان ولا يشتبهان .

وهكذا يبدأ الهجوم منذ البدء على تقولهم الظالم وادعائهم القبيح ، الذى لا يستند إلى شبهة ولا ظل من دليل .

ثم يرتقى فى إنكار مقولتهم الأخرى .. « افتراه » .. فلا يسوقها فى صيغة الخبر بل فى صيغة الاستفهام . كأن هذا القول لا يمكن أن يقال ، وبعيد أن يقال :

« أم يقولون افتراه ؟ » . .

فيبلغ بهم التطاول أن يقولوا هذه المقولة التى لا تخطر على بال ؟ !

ويلقن الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يرد عليهم بأدب النبوة ، الذى ينم عن حقيقة شعوره بربه ، وشعوره بوظيفته ، وشعوره بحقيقة القوى والقيم فى هذا الوجود كله :

«قل : إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيدا بينى وبينكم . وهو الغفور الرحيم » . .

قل لهم : كيف أفتريه ؟ ولحساب من أفتريه ؟ ولأى هدف أفتريه ؟ أأفتريه لتؤمنوا بى وتتبعونى ؟ ولكن : « إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا » .. وهو آخذنى بما افتريت. فماذا يجدينى أن تكونوا معى وأن تتبعونى . وأنتم أعجز من أن تحمونى من الله حين يأخذنى بافترائى ، وأضعف من أن تنصرونى ؟ !

وهو الرد اللائق بنبى ، يتلقى من ربه ، ولا يرى فى الوجود غيره، ولا يعرف قوة غير قوته، وهو رد كذلك منطقى يدركه المخاطبون به لو حكموا عقولهم فيه . يجيبهم به ، ثم يترك أمرهم لله: « هو أعلم بما تفيضون فيه » .. من القول والفعل . وهو يجزيكم بما يعلمه من أمركم . « كفى به شهيدا بينى وبينكم » . . يشهد ويقضى ، وفى شهادته الكفاية وفى قضائه . « وهو الغفور الرحيم » .. وقد يرأف بكم ، فيهديكم رحمة منه ، ويغفر لكم ما كان من ضلالكم قبل الهدى والإيمان ..

رد فيه تحذير وترهيب . وفيه إطماع وتحضيض . يأخذ على القلب مسالكه ، ويلمس أوتاره. ويشعر السامعين أن الأمر أجل من مقولاتهم الهازلة ، وادعاءاتهم العابثة . وأنه فى ضمير الداعية أكبر وأعمق مما يشعرون .

ويمضى معهم فى مناقشة القضية ـ قضية الوحى ـ من زاوية أخرى واقعية مشهودة . فماذا ينكرون من أمر الوحى والرسالة؟ ولم يعجلون بتهمة السحر أوتهمة الافتراء؟ وليس فى الأمر غريب ولاعجيب :

« قل : ما كنت بدعا من الرسل . وماأدرى مايفعل بى ولا بكم . إن أتبع إلا مايوحى إلى . وماأنا إلا نذير مبين » ..

إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس أول رسول . فقد سبقته الرسل . وأمره كأمرهم . وما كان بدعا من الرسل . بشر يعلم الله أنه أهل للرسالة فيوحى إليه ، فيصدع بما يؤمر . هذا هوجوهر الرسالة وطبيعتها .. والرسول حين يتصل قلبه لايسأل ربه دليلا ، ولايطلب لنفسه اختصاصا . إنما يمضى فى سبيله ، يبلغ رسالة ربه ، حسبما أوحى بها إليه : « وماأدرى مايفعل بى ولا بكم . إن أتبع إلا مايوحى إلى » .. فهو لايمضى فى رسالته لأنه يعلم الغيب ؛ أولأنه يطلع على مايكون من شأنه وشأن قومه وشأن الرسالة التى يبشر بها . إنما هو يمضى وفق الإشارة وحسب التوجيه . واثقا بربه ، مستسلما لإرادته ، مطيعا لتوجيهه ، يضع خطاه حيث قادها الله . والغيب أمامه مجهول ، سره عند ربه . وهو لايتطلع إلى السر من وراء الستر لأن قلبه مطمئن . ولأن أدبه مع ربه ينهاه عن التطلع لغير مافتح له . فهو واقف أبدا عند حدوده وحدود وظيفته : « وما أنا إلا نذير مبين » .

وإنه لأدب الواصلين ، وإنها لطمأنينة العارفين ، يتأسون فيها برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيمضون فى دعوتهم لله . لالأنهم يعرفون مآلها ، أويعلمون مستقبلها . أويملكون فيها قليلا أوكثيرا . ولكن لأن هذا واجبهم وكفى . ومايطلبون من ربهم برهانا فبرهانهم فى قلوبهم . ومايطلبون لأنفسهم خصوصية . فخصوصيتهم أنه اختارهم . ومايتجاوزون الخط الدقيق الذى خطه لهم ، ورسم لهم فيه مواقع أقدامهم على طول الطريق .

ثم يواجههم بشاهد قريب ، لشهادته قيمتها ، لأنه من أهل الكتاب ، الذين يعرفون طبيعة التنزيل :

« قل : أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين » . .

وقد تكون هذه واقعة حال ، ويكون واحد أو أكثر من بنى إسرائيل ، عرف أن

طبيعة هذا القرآن هى طبيعة الكتب المنزلة من عند الله ، بحكم معرفته لطبيعة التوراة . فآمن . وقد وردت روايات أنها نزلت فى عبد الله ابن سلام . لولا أن هذه السورة مكية وعبد الله ابن سلام إنما أسلم فى المدينة . وقد ورد كذلك أن هذه الآية مدنية توكيدا لنزولها فى شأن عبد الله – رضى الله عنه – . كما ورد أنها مكية وأنها لم تنزل فيه .

وقد تكون إشارة إلى واقعة أخرى فى مكة نفسها . فقد آمن بعض أهل الكتاب على قلة فى العهد المكى . وكان لإيمانهم ، وهم أهل كتاب ، قيمته وحجيته فى وسط المشركين الأميين . ومن ثم نوه به القرآن فى مواضع متعددة ، وواجه به المشركين الذين كانوا يكذبون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وهذا الأسلوب فى الجدل : « قل : أرأيتم إن كان من عند الله ... الخ » يراد به زعزعة الإصرار والعناد فى نفوس أهل مكة ، وإثارة التخوف فى نفوسهم والتحرج من المضى فى التكذيب . مادام أن هذا القرآن يحتمل أن يكون من عند الله حقا كما يقول محمد . وفى هذه الحالة تكون العاقبة وخيمة . فأولى لهم أن يحتاطوا لهذا الفرض ، الذى قد يصح ، فيحل بهم كل ما ينذرهم به . ومن الأحوط إذن أن يتريثوا فى التكذيب ، وأن يتدبروا الأمر فى حرص وفى حذر ، قبل التعرض لتلك العاقبة الوخيمة . وبخاصة إذا أضيف إلى ذلك الاحتمال أن واحدا أو أكثر من أهل الكتاب يشهد بأن طبيعته من طبيعة الكتاب قبله ؛ ويتبع هذا التذوق بالإيمان . بينما هم الذين جاء القرآن لهم ، وبلغتهم ، وعلى لسان رجل منهم ، يستكبرون ويكفرون .. وهو ظلم بين وتجاوز للحق صارخ ، يستحق النقمة من الله وإحباط الأعمال : « إن الله لا يهدى القوم الظالمين » . .

ولقد سلك القرآن شتى السبل ، واتبع شتى الأساليب ، ليواجه شكوك القلب البشرى وانحرافاته وآفاته ؛ ويأخذ عليها المسالك ؛ ويعالجها بكل أسلوب . وفى أساليب القرآن المتنوعة زاد للدعوة والدعاة إلى هذا الدين . . ومع اليقين الجازم بأن هذا القرآن من عند الله فقد استخدم أسلوب التشكيك لا أسلوب الجزم للغرض الذى أسلفنا . وهو واحد من أساليب الإقناع فى بعض الأحوال . .

وبعد ذلك يمضى فى استعراض مقولات المشركين عن هذا القرآن وعن هذا الدين ؛ فيحكى اعتذارهم عن التكذيب به والإعراض عنه ، اعتذار المستكبر المتعالى على المؤمنين :

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا : لوكان خيرا ماسبقونا إليه .وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم » . .

ولقد سارع إلى الإسلام وسبق إليه نفر من الفقراء والموالى فى أول الأمر . فكان هذا مغمزا فى نظر الكبراء المستكبرين . وراحوا يقولون : لوكان هذا الدين خيرا ماكان هؤلاء أعرف منا به ، ولا أسبق منا إليه . فنحن فى مكانتنا وسعة إدراكنا وحسن تقديرنا ، أعرف بالخير من هؤلاء !

والأمر ليس كذلك . فما كان يمنعهم عنه أنهم يشكون فيه أو يجهلون الحق الذى يقوم عليه . والخير الذى يحتويه . إنما كان هو الكبر عن الإذعان لمحمد — كما كانوا يقولون — وفقدان المراكز الاجتماعية ، والمنافع الاقتصادية ، كما كان هو الاعتزاز الأجوف بالآباء والأجداد وما كان عليه الآباء والأجداد . فأما الذين سارعوا إلى الإسلام وسبقوا إليه فلم تكن فى نفوسهم تلك الحواجز التى منعت الكبراء والأشراف .

إنه الهوى يتعاظم أهل الكبر أن يذعنوا للحق، وأن يستمعوا لصوت الفطرة، وأن يسلموا بالحجة . وهو الذى يملى عليهم العناد والإعراض ، واختلاق المعاذير ، والادعاء بالباطل على الحق وأهله . فهم لايسلمون أبدا أنهم مخطئون ؛ وهم يجعلون من ذواتهم محورا للحياة كلها يدورون حوله ويريدون أن يديروا حوله الحياة :

« وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم » ..

طبعا ! فلابد من عيب فى الحق ماداموا لم يهتدوا به ، ولم يذعنوا له . لابد من عيب فى الحق لأنهم هم لايجوز أن يخطئوا . وهم فى نظر أنفسهم ، أوفيما يريدون أن يوحوا به للجماهير ، مقدسون معصومون لايخطئون !

ويختم هذه الجولة فى قضية الوحى والرسالة بالإشارة إلى كتاب موسى ، وتصديق هذا القرآن له — كما سبقت الإشارة فى شهادة الشاهد من بنى إسرائيل :

« ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة . وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » ..

وقد كرر القرآن الإشارة إلى الصلة بين القرآن والكتب قبله ، وبخاصة كتاب موسى ، باعتبار أن كتاب عيسى تكملة وامتداد له . وأصل التشريع والعقيدة فى التوراة . ومن ثم سمى

كتاب موسى « إماما » ووصفه بأنه رحمة . وكل رسالة السماء رحمة للأرض ومن فى الأرض، بكل معانى الرحمة فى الدنيا وفى الآخرة .. « وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا » .. مصدق للأصل الأول الذى تقوم عليه الديانات كلها ؛ والمنهج الإلهى الذى تسلكه الديانات جميعها ؛ وللاتجاه الأصيل الذى توجه البشرية إليه ، لتتصل بربها الواحد الكريم .

والإشارة إلى عروبته للامتنان على العرب ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ، ورعايته لهم ، وعنايته بهم ؛ ومظهرها اختيارهم لهذه الرسالة ، واختيار لغتهم لتتضمن هذا القرآن العظيم .

ثم بيان لطبيعة الرسالة ، ووظيفتها :

« لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » . .

* * *

وفى نهاية هذا الشوط الأول يصور لهم جزاء المحسنين ، ويفسر لهم هذه البشرى التى يحملها إليهم القرآن الكريم ، بشرطها ، وهو الاعتراف بربوبية الله وحده والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته :

« إن الذين قالوا : ربنا الله . ثم استقاموا . فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها ، جزاء بما كانوا يعملون » . .

وقولة : « ربنا الله » . . ليست كلمة تقال . بل إنها ليست مجرد عقيدة فى الضمير . إنما هى منهج كامل للحياة ، يشمل كل نشاط فيها وكل اتجاه ، وكل حركة وكل خالجة ؛ ويقيم ميزانا للتفكير والشعور ، وللناس والأشياء ، وللأعمال والأحداث ، وللروابط والوشائج فى كل هذا الوجود .

« ربنا الله » فله العبادة ، وإليه الاتجاه . ومنه الخشية وعليه الاعتماد .

« ربنا الله » فلا حساب لأحد ولا لشىء سواه ، ولا خوف ولا تطلع لمن عداه .

« ربنا الله » فكل نشاط وكل تفكير وكل تقدير متجه إليه ، منظور فيه إلى رضاه .

« ربنا الله » فلا احتكام إلا إليه ، ولا سلطان إلا لشريعته ، ولا اهتداء إلا بهداه .

« ربنا الله » فكل من فى الوجود وكل ما فى الوجود مرتبط بنا ونحن نلتقى به فى صلتنا بالله .

« ربنا الله » . . . منهج كامل على هذا النحو ، لا كلمة تلفظها الشفاه ، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة .

« ثم استقاموا » .. وهذه أخرى . فالاستقامة والاطراد والثبات على هذا المنهج درجة بعد اتخاذ المنهج . استقامة النفس وطمأنينة القلب . استقامة المشاعر والخوالج ، فلا تتأرجح ولا تضطرب ولا تشك ولا ترتاب بفعل الجواذب والدوافع والمؤثرات . وهى عنيفة ومتنوعة وكثيرة . واستقامة العمل والسلوك على المنهج المختار . وفى الطريق مزالق وأشواك ومعوقات ؛ وفيه هواتف بالانحراف من هنا ومن هناك !

« ربنا الله » .. منهج .. والاستقامة عليه درجة بعد معرفته واختياره . والذين يقسم الله لهم المعرفة والاستقامة هم الصفوة المختارة . وهؤلاء « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .. وفيم الخوف وفيم الحزن .. والمنهج واصل . والاستقامة عليه ضمان الوصول ؟

« أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » ..

وتوضح كلمة « يعملون » معنى « ربنا الله » ، ومعنى الاستقامة على هذا المنهج فى الحياة . فهى تشير إلى أن هناك عملا كان الخلود فى الجنة جزاءه . عملا منبعثا من ذلك المنهج : « ربنا الله » ومن الاستقامة عليه والاطراد والثبات .

ومن ثم ندرك أن الكلمات الاعتقادية فى هذا الدين ليست مجرد ألفاظ تقال باللسان . فشهادة أن لا إله إلا الله ليست عبارة ولكنها منهج. فإذا ظلت مجرد عبارة فليست هى « ركن» الإسلام المطلوب المعدود فى أركان الإسلام !

ومن ثم ندرك القيمة الحقيقية لمثل هذه الشهادة التى ينطق بها اليوم ملايين؛ ولكنها لا تتعدى شفاههم ، ولا يترتب عليها أثر فى حياتهم . وهم يحيون على منهج جاهلى شبه وثنى ؛ بينما شفاههم تنطق بمثل هذه العبارة . شفاههم الجوفاء !

إن « لا إله إلا الله » .. أو « ربنا الله » .. منهج حياة . هذا ما ينبغى أن يستقر فى الضمائر والأخلاد ، كما تبحث عن المنهج الكامل الذى تشير إليه مثل هذه العباره وتتحراه ..

« وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، قَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا، وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ.

« وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ : أُفٍّ لَكُمَا ! أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي، وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ. وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. فَيَقُولُ : مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ.

« وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ. أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا، وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا. فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ » . .

هذا الشوط يسير مع الفطرة فى استقامتها وفى انحرافها، وفيما تنتهى إليه حين تستقيم وما تنتهى إليه حين تنحرف. ويبدأ بالوصية بالوالدين. وكثيرا ماترد هذه الوصية لاحقة للكلام عن العقيدة فى الله أومصاحبة لهذا الحديث. ذلك أن وشيجة الأبوة والبنوة هى أول وشيجة بعد وشيجة الإيمان فى القوة والأهمية، وأولاها بالرعاية والتشريف. وفى هذا الاقتران دلالتان: أولاها هى هذه. والثانية أن آصرة الإيمان هى الأولى وهى المقدمة، ثم تليها آصرة الدم فى أوثق صورها.

وفى هذا الشوط نموذجان من الفطرة : فى النموذج الأول تلتقى آصرة الإيمان وآصرة الوالدين فى طريقها المستقيم المهتدى الواصل إلى الله. وفى الثانى تفترق آصرة النسب عن آصرة الإيمان، فلاتلتقيان. والنموذج الأول مصيره الجنة ونصيبه البشرى. والنموذج الثانى مصيره النار ونصيبه استحقاق العذاب. وبهذه المناسبة يعرض صورة العذاب فى مشهد من مشاهد القيامة، يصور عاقبة الفسوق والاستكبار.

***

« ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا » . .

فهى وصية لجنس الإنسان كله، قائمة على أساس إنسانيته، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى وراء كونه إنسانا.وهى وصية بالإحسان مطلقةمن كل شرط ومن كل قيد.فصفة الوالدية تقتضى هذا الإحسان بذاتها ، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك . وهى وصية صادرة من خالق الإنسان، وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضا . فما يعرف فى عالم الطير أو الحيوان أو الحشرات وما إليها أن صغارها مكلفة برعاية كبارها . والشاهد الملحوظ هو فقط تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارها صغارها فى بعض الأجناس-فهى وصية ربما كانت خاصة بجنس الإنسان.

وتتكرر فى القرآن الكريم وفى حديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — الوصيةبالإحسان إلى الوالدين . ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة ، ولمناسبة حالات معينة . ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد ، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مثير . وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التى كثيراماتصل إلى حد الموت —فضلا على الألم— بدون تردد ، ودون انتظار عوض ، ودون منّ ولا رغبة حتى فى الشكران ! أما الجيل الناشىء فقلما يتلفت إلى الخلف . قلما يتلفت إلى الجيل المضحى الواهب الفانى . لأنه بدوره مندفع إلى الأمام، يطلب جيلا ناشئا منه يضحى له بدوره ويرعاه ! وهكذا تمضى الحياة !

والإسلام يجعل الأسرة هى اللبنة الأولى فى بنائه ؛ والمحضن الذى تدرج فيه الفراخ الخضر وتكبر ؛ وتتلقى رصيدها من الحب والتعاون والتكافل والبناء.والطفل الذى يحرم من محضن الأسرة ينشأ شاذا غير طبيعى فى كثير من جوانب حياته —مهماتوافرتله وسائل الراحة والتربية فى غير محيط الأسرة — وأول مايفقده فى أى محضن آخر غير محضن الأسرة ،هوشعور الحب . فقد ثبت أن الطفل بفطرته يحب أن يستأثر وحده بأمه فترة العامين الأولين من حياته.ولايطيق أن يشاركه فيها أحد . وفى المحاضن الصناعية لا يمكن أن يتوفر هذا . إذ تقوم الحاضنة بحضانة عدة أطفال ، يتحاقدون فيما بينهم ، على الأم الصناعية المشتركة ، وتبذر فى قلوبهم بذرة الحقد فلا تنمو بذرة الحب أبدا . كذلك يحتاج الطفل إلى سلطة واحدة ثابتة تشرف عليه فترة من حياته كى يتحقق له ثبات الشخصية . وهذا مالا يتيسر إلا فى محضن الأسرة الطبيعى . فأما فى المحاضن الصناعية فلا تتوفر السلطة الشخصية الثابتة لتغير الحاضنات بالمناوبة على الأطفال . فتنشأ شخصياتهم مخلخلة ، ويحرمون ثبات الشخصية . . والتجارب فى المحاضن تكشف فى كل يوم

عن حكمة أصيلة فى جعل الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع السليم، الذى يستهدف الإسلام إنشاءه على أساس الفطرة السليم .

ويصور القرآن هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التى تتقدم بها الأمومة ، والتى لايجزيها أبدا إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله فى الوالدين :

« حملته أمه كرها، ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » ..

وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال : « حملته أمه كرها . ووضعته كرها » .. لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد ، ويلهث بالأنفاس ! إنها صورة الحمل وبخاصة فى أواخر أيامه ، وصورة الوضع وطلقه وآلامه !

ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا فى عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها فى صورة حسية مؤثرة ..

إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم.وهى مزودة بخاصية أكالة . تمزق جدار الرحم الذى تلتصق به وتأكله ؛فيتوارد دم الأم إلى موضعها ، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائما فى بركة من دم الأم الغنى بكل مافى جسمها من خلاصات ؛ وتمتصه لتحيا به وتنمو . وهى دائمة الأكلان لجدار الرحم . دائمة الامتصاص لمادة الحياة. والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص، لتصب هذا كله دما نقيا غنيا لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول ! وفى فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم فتفتقر إلى الجير . ذلك أنها تعطى محلول عظامها فى الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير ! وهذا كله قليل من كثير !

ثم الوضع ، وهو عملية شاقة ، ممزقة ، ولكن آلامها الهائلة كلها لاتقف فى وجه الفطرة ولاتنسى الأم حلاوة الثمرة . ثمرة التلبية للفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش ، وتمتد . . بينما هى تذوى وتموت !

ثم الرضاع والرعاية . حيث تعطى الأم عصارة لحمها وعظمها فى اللبن ، وعصارة قلبها وأعصابها فى الرعاية . وهى مع هذا وذلك فرحة سعيدة رحيمة ودود . لاتمل أبدا ولاتكره تعب هذا الوليد . وأكبر ماتتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو. فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد!

فأنى يبلغ الإنسان فى جزاء هذه التضحية ، مهما يفعل . وهو لايفعل إلا القليل الزهيد ؟

وصدق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد جاءه رجل كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها ، فسأله — صلى الله عليه وسلم — : هل أديتُ حقها ؟ فأجابه : « لا، ولا بزفرة واحدة »[1].

***

(١) رواه الحافظ أبو بكر البزار — بإسناده — عن بريدة عن أبيه .

ويخلص من هذه الوقفة أمام الوصية بالوالدين ، واستجاشة الضمائر بصورة التضحية النبيلة ممثلة فى الأم ، إلى مرحلة النضج والرشد ، مع استقامة الفطرة ، واهتداء القلب :

« حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأصلح لى فى ذريتى ، إنى تبت إليك ، وإنى من المسلمين » . .

وبلوغ الأشد يتراوح بين الثلاثين والأربعين . والأربعون هى غاية النضج والرشد ، وفيها تكتمل جميع القوى والطاقات ، ويتهيأ الإنسان للتدبر والتفكر فى اكتمال وهدوء . وفى هذه السن تتجه الفطرة المستقيمة السليمة إلى ماوراء الحياة ومابعد الحياة . وتتدبر المصير والمآل .

ويصور القرآن هنا خوالج النفس المستقيمة ، وهى فى مفرق الطريق ، بين شطر من العمر ولى ، وشطر يكاد آخره يتبدى. وهى تتوجه إلى الله :

« رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى » . .

دعوة القلب الشاعر بنعمة ربه، المستعظم المستكثر لهذه النعمة التى تغمره وتغمر والديه قبله فهى قديمة العهد به ، المستقل المستصغر لجهده فى شكرها . يدعو ربه أن يعينه بأن يجمعه كله : « أوزعنى » .. لينهض بواجب الشكر ؛ فلايفرق طاقته ولااهتمامه فى مشاغل أخرى غير هذا الواجب الضخم الكبير .

« وأن أعمل صالحا ترضاه » ..

وهذه أخرى . فهو يطلب العون للتوفيق إلى عمل صالح، يبلغ من كماله وإحسانه أن يرضاه ربه . فرضى ربه هو الغاية التى يتطلع إليها . وهو وحده الرجاء الذى يأمل فيه .

« وأصلح لى فى ذريتى » ..

وهذه ثالثة . وهى رغبة القلب المؤمن فى أن يتصل عمله الصالح فى ذريته. وأن يؤنس قلبه شعوره بأن فى عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه . والذرية الصالحة أمل العبد الصالح. وهى آثر عنده من الكنوز والذخائر . وأروح لقلبه من كل زينة الحياة . والدعاء يمتد من الوالدين إلى الذرية ليصل الأجيال المتعاقبة فى طاعة الله .

وشفاعته إلى ربه . شفاعته التى يتقدم بها بين يدى هذا الدعاء الخالص لله ، هى التوبة والإسلام :

« إنى تبت إليك وإنى من المسلمين » .

ذلك شأن العبد الصالح ، صاحب الفطرة السليمة المستقيمة مع ربه . فأما شأن ربه معه ، فقد أفصح عنه هذا القرآن :

« أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ، ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة . وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » ..

فالجزاء بحساب أحسن الأعمال . والسيئات مغفورة متجاوز عنها . والمآل إلى الجنة مع أصحابها الأصلاء . ذلك وفاء بوعد الصدق الذى وعدوه فى الدنيا . ولن يخلف الله وعده . . وهو جزاء الفيض والوفر والإنعام .

* * *

فأما النموذج الآخر فهو نموذج الانحراف والفسوق والضلال :

« والذى قال لوالديه : أف لكما ! أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ؟ » ..

فالوالدان مؤمنان. والولد العاق يجحد برهما أول مايجحد ؛ فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح : « أف لكما ! » .. ثم يجحد الآخرة بالحجة الواهية : « أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ؟ » .. أى ذهبوا ولم يعد منهم أحد .. والساعة مقدرة إلى أجلها . والبعث جملة بعد انتهاء أجل الحياة الدنيا . ولم يقل أحد إنه تجزئة . يبعث جيل مضى فى عهد جيل يأتى. فليست لعبة وليست عبثا . إنما هو الحساب الختامى للرحلة كلها بعد انتهائها !

والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر ، ويفزعان مما يقوله الولد العاق لربه ولهما ؛ ويرتعش حسهما لهذا التهجم والتطاول ؛ ويهتفان به : « وهما يستغيثان الله . ويلك آمن . إن وعد الله حق » .. ويبدو فى حكاية قولهما الفزع من هول مايسمعان . بينما هو يصر على كفره، ويلج فى جحوده : « فيقول : ماهذا إلا أساطير الأولين » ..

هنا يعاجله الله بمصيره المحتوم:

« أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين » . .

والقول الذى حق على هذا وأمثاله هو العقاب الذى ينال الجاحدين المكذبين . وهم كثير. خلت بهم القرون . من الجن والإنس . حسب وعيد الله الصادق الذى لايخلف ولايتخلف .

« إنهم كانوا خاسرين » .. وأية خسارة أكبر من خسارة الإيمان واليقين فى الدنيا. ثم خسارة الرضوان والنعيم فى الآخرة . ثم العذاب الذى يحق على الجاحدين المنحرفين ؟

* * *

وبعد بيان العاقبة والجزاء إجمالا للمهتدين والضالين ، يصور دقة الحساب والتقدير لكل فرد من هؤلاء وهؤلاء على حدة :

« ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم ، وهم لايظلمون » ..

فلكل فرد درجته ، ولكل فرد عمله ، فى حدود ذلك الإجمال فى جزاء كل فريق .

وبعد ، فهذان النموذجان عامان فى الناس ، ولكن مجيئهما فى هذا الأسلوب ، الذى يكاد يحدد شخصين بذواتهما أوقع وأشد إحياء للمثل كأنه واقع .

ولقد وردت روايات أن كلا منهما يعنى إنسانا بعينه.ولكن لم يصح شىء من هذه الروايات. والأولى اعتبارهما واردين مورد المثل والنموذج . يدل على هذا الاعتبار صيغة التعقيب على كل نموذج . فالتعقيب على الأول : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة . وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » .. والتعقيب على الثانى : « أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين » .. ثم التعقيب العام : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم ، وهم لايظلمون ».. وكلها توحى بأن المقصود هو النموذج المكرر من هؤلاء وهؤلاء .

* * *

ثم يقفهم وجها لوجه أمام مشهد شاخص لهم فى يوم الحساب الذى كانوا يجحدون :

« ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون»..

والمشهد سريع حاسم ، ولكنه يتضمن لفتة عميقة عريضة . إنه مشهد العرض على النار . وفى مواجهتها وقبيل سوقهم إليها ، يقال لهم عن سبب عرضهم عليها وسوقهم إليها : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » . . فقد كانوا يملكون الطيبات إذن ، ولكنهم استنفدوها فى الحياة الدنيا ، فلم يدخروا للآخرة منها شيئا ؛ واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حسابا . استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع ، غير ناظرين فيها

للآخرة ، ولا شاكرين لله نعمته ، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام . ومن ثم كانت لهم دنيا ولم تكن لهم آخرة . واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذى لا يعلم حدوده إلا الله !

« فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون » . .

وكل عبد يستكبر فى الأرض فإنما يستكبر بغير حق . فالكبرياء لله وحده . وليست لأحد من عباده فى كثير أو قليل . وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار فى الأرض . فجزاء الاستكبار الهوان . وجزاء الفسوق عن منهج الله وطريقه الانتهاء إلى هذا الهوان أيضا . فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

وهكذا ينتهى هذا الشوط من السورة بعرض ذينك النموذجين ومصيرهما فى النهاية ؛ وبهذا المشهد المؤثر للمكذبين بالآخرة ، الفاسقين عن منهج الله ، المستكبرين عن طاعته . وهى لمسة للقلب البشرى تستجيش الفطر السليمة القويمة لارتياد الطريق الواصل المأمون .

« وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ، وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا : أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ؟ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ : إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ، وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ .

« فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا : هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا . بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ : رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا . فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .

« وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ، فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

«وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى، وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ* فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ! بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ، وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .

وهذا الشوط جولة فى مجال آخر ،تخدم القضية التى تعالجها السورة، وتأخذ القلب البشرى من جانب غير الجوانب التى عالجها الشوطان الأولان . . جولة فى مصرع عاد ومصارع القرى غيرها حول مكة . وقد وقفوا من رسولهم وأخيهم هود ــ عليه السلام ــ موقف المشركين من رسولهم وأخيهم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ واعترضوا اعتراضاتهم ، وأجابهم نبيهم بما يليق به من أدب النبوة فى حدود بشريته وحدود وظيفته . ثم أخذهم ماأخذهم من العذاب المدمر، حين لم يسمعوا النذير . فلم تغن عنهم قوتهم ــ وكانوا أقوى ــ ولم يغن عنهم ثراؤهم ــ وكانوا أغنى ــ ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم ــ وكانوا أذكياء ــ ولم تغن عنهم آلهتهم التى اتخذوها تقربا ــ بزعمهم ــ إلى الله .

وكذلك يقف المشركين فى مكة أمام مصارع أسلافهم من أمثالهم ؛ فيقفهم أمام مصيرهم هم أنفسهم . ثم أمام الخط الثابت المطرد المتصل. خط الرسالة القائمة على أصلها الواحد الذى لايتغير. وخط السنة الإلهية التى لاتتحول ولاتتبدل . وتبدو شجرة العقيدة عميقة الجذور، ممتدة الفروع ضاربة فى أعماق الزمان ؛ واحدة على اختلاف القرون واختلاف المكان .

* * *

« واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ــ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ــ ألا تعبدوا إلا الله . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . .

وأخو عاد هو هود ــ عليه السلام ــ يذكره القرآن هنا بصفته. صفة الأخوة لقومه . ليصور صلة الود بينه وبينهم ، وصلة القرابة التى كانت كفيلة بأن تعطفهم إلى دعوته ، وتحسن ظنهم بها وبه . وهى ذات الصلة بين محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقومه الذين يقفون منه موقف الملاحاة والخصومة .

والأحقاف جمع حقف . وهو الكثيب المرتفع من الرمال . وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة فى جنوب الجزيرة ــ يقال فى حضرموت .

والله — سبحانه — يوجه نبيه — صلى الله عليه وسلم — أن يذكر أخا عاد وإنذاره لقومه بالأحقاف . يذكره ليتأسى بأخ له من الرسل لقى مثلما يلقى من إعراض قومه وهو أخوهم . ويذكره ليذكر المشركين فى مكة بمصير الغابرين من زملائهم وأمثالهم ، على مقربة منهم ومن حولهم . .

وقدأنذر أخو عاد قومه ، ولم يكن أول نذير لقومه . فقد سبقته الرسل إلى أقوامهم . .

« وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » . .

قريبا منه وبعيدا عنه فى الزمان وفى المكان . فالنذارة متصلة ، وسلسلة الرسالة ممتدة . والأمر ليس بدعا ولاغريبا . فهو معهود مألوف .

أنذرهم — ماأنذر به كل رسول قومه — : « ألاتعبدوا إلاالله . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . . وعبادة الله وحده عقيدة فى الضمير ومنهج فى الحياة ؛ والمخالفة عنها تنتهى إلى العذاب العظيم فى الدنيا أو فى الآخرة ، أوفيها على السواء . والإشارة إلى اليوم « عذاب يوم عظيم » . . تعنى حين تطلق يوم القيامة وهو أشد وأعظم .

فماذا كان جواب قومه على التوجيه إلى الله ، والإنذار بعذابه ؟

« قالوا : أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ! » . .

سوء الظن وعدم الفهم ،والتحدى للنذير ، واستعجال العذاب الذى ينذرهم به، والاستهزاء والتكذيب . وإصرار على الباطل واعتزاز !

فأما هود النبى فيتلقى هذا كله فى أدب النبى ، وفى تجرده من كل ادعاء ، وفى الوقوف عند حده لايتعداه :

« قال : إنما العلم عند الله . وأبلغكم ما أرسلت به . ولكنى أراكم قوما تجهلون » . .

إنما أنذركم بالعذاب كما كلفت أن أنذركم . ولست أعلم متى يحين موعده ، ولا كيف يكون شكله . فعلم ذلك عند الله . وإنما أنا مبلغ عن الله . لا أدعى علما ولا قدرة مع الله . . « ولكنى أراكم قوما تجهلون » وتحمقون . وأية حماقة وأى جهل أشد من استقبال النذير الناصح والأخ القريب بمثل هذا التحدى والتكذيب ؟

ويجمل السياق هنا ما كان بين هود وقومه من جدل طويل ، ليمضى إلى النهاية المقصودة أصلا فى هذا المقام ؛ ردا على التحدى والاستعجال .

« فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا . بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم . كذلك نجزى القوم المجرمين » . .

وتقول الروايات : إنه أصاب القوم حر شديد ، واحتبس عنهم المطر ، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف . ثم ساق الله إليهم سحابة ، ففرحوا بها فرحا شديدا ، وخرجوا يستقبلونها فى الأودية ، وهم يحسبون فيها الماء : « قالوا هذا عارض ممطرنا » . .

وجاءهم الرد بلسان الواقع : « بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها » . . وهى الريح الصرصر العاتية التى ذكرت فى سورة أخرى . كما جاء فى صفتها : « ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » .

والنص القرآنى يصور الريح حية مدركة مأمورة بالتدمير : «تدمر كل شيء بأمر ربها» وهى الحقيقة الكونية التى يحفل القرآن بإشعارها للنفوس . فهذا الوجود حى . وكل قوة من قواه واعية . وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه . والإنسان أحد هذه القوى . وحين يؤمن حق الإيمان ، ويتفتح قلبه للمعرفة الواصلة ، يستطيع أن يعى عن القوى الكونية من حوله ، وأن يتجاوب معها ، وأن تتجاوب معه ، تجاوب الأحياء المدركة ، بغير الصورة الظاهرة التى يعرفها الناس من الحياة والإدراك . ففى كل شيء روح وحياة ، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق . والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار ، تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار .

وقد أدت الريح ما أمرت به ، فدمرت كل شيء « فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » . . أما هم وأما أنعامهم وأما أشياؤهم وأما متاعهم فلم يعد شيء منه يرى . إنما هى المساكن قائمة خاوية موحشة ، لا ديار فيها ولا نافخ نار . . « كذلك نجزى القوم المجرمين » . . سنة جارية وقدر مطرد فى المجرمين .

* * *

وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين ، يلمس قلوبهم بما ترتعش منه القلوب :

« ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه . وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة . فما أغنى عنهم سمعهم

ولاأبصارهم ولا أفئدتهم من شيء . إذ كانوا يجحدون بآيات الله . وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » . .

هؤلاء الذين دمرتهم الريح المأمورة بالتدمير . مكناهم فيما لم نمكنكم فيه .. إجمالا . . من القوة والمال والعلم والمتاع . وآتيناهم أسماعا وأبصارا وأفئدة ـ والقرآن يعبر عن قوة الإدراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة باللب ومرة بالعقل . وكلها تعنى الإدراك فى صورة من صوره ـ ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم فى شىء . إذ أنهم عطلوها وحجبوها « إذ كانوا يجحدون بآيات الله » . . والجحود بآيات الله يطمس الحواس والقلوب ، ويفقدها الحساسية والإشراق والنور والإدراك . « وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .. من العذاب والبلاء ..

والعبرة التى يفيدها كل ذى سمع وبصر وقلب ، ألا يغتر ذو قوة بقوته ، ولاذومال بماله ، ولا ذو علم بعلمه . فهذه قوة من قوى الكون تسلط على أصحاب القوة والمال والعلم والمتاع ، فتدمر كل شىء ، وتتركهم « لايرى إلامساكنهم » حين يأخذهم الله بسنته التى يأخذ بها المجرمين .

والريح قوة دائبة العمل ، وفق النظام الكونى الذى قدره الله، وهو يسلطها حين يسلطها للتدمير وهى ماضية فى طريقها الكونى، تعمل وفق الناموس المرسوم. فلاحاجة لخرق النواميس الكونية ـ كما يعترض المعترضون واهمين ـ فصاحب الناموس المرسوم هوصاحب القدر المعلوم. وكل حادث وكل حركة . وكل اتجاه . وكل شخص . وكل شىء . محسوب حسابه ، داخل فى تصميم الناموس .

والريح كغيرها من القوى الكونية مسخرة بأمر ربها ،ماضية تؤدى ماقدره لها فى نطاق الناموس المرسوم لها وللوجود كله . ومثلها قوة البشر المسخرة لما يريده الله بها. للسخر لهامن قوى الكون ماأراد الله تسخيره لها .وحين يتحرك البشر فإنما يؤدون دورهم فى هذا الوجود ، ليتم ماأراده الله بهم وفق مايريد.وحرية إرادتهم فى الحركة والاختيار جزء من الناموس الكلى ينتهى إلى التناسق الكونى العام . وكل شىء مقدر تقديرا لاينالة نقض ولااضطراب .

***

ويختم هذا الشوط بالعبرة الكلية لمصارع من حولهم من القرى من عاد وغير عاد :

« ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى،وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون. فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ! بل ضلوا عنهم . وذلك إفكهم وما كانوا يفترون » ..

وقد أهلك الله القرى التى كذبت رسلها فى الجزيرة . كعاد بالأحقاف فى جنوب الجزيرة . وثمود بالحجر فى شمالها . وسبأ وكانوا باليمن . ومدين وكانت فى طريقهم إلى الشام . وكذلك قرى قوم لوط وكانوا يمرون بها فى رحلة الصيف إلى الشمال .

ولقد نوع الله فى آياته لعل المكذبين يرجعون إلى ربهم ويثوبون . ولكنهم مضوا فى ضلالتهم ، فأخذهم العذاب الأليم ، ألوانا وأنواعا ، تتحدث بها الأجيال من بعدهم ، ويعرفها الخلف من ورائهم . وكان مشركو مكة يتسامعون بها ، ويرون آثارها غادين رائحين .

وهنا يلفتهم إلى الحقيقة الواقعة . فقد دمر الله على المشركين قبلهم وأهلكهم دون أن تنجيهم آلهتهم التى كانوا يتخذونها من دون الله، زاعمين أنهم يتقربون بها إليه. سبحانه . وهى تستنزل غضبه ونقمته : « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ! »

إنهم لم ينصروهم « بل ضلوا عنهم » .. وتركوهم وحدهم لا يعرفون طريقا إليهم أصلا،فضلا على أن يأخذوا بيدهم وينجدوهم من بأس الله .

« وذلك إفكهم وما كانوا يفترون » ..

فهو إفك . وهو افتراء . وذلك مآله . وتلك حقيقته . . الهلاك والتدمير . . فماذا ينتظر المشركون الذين يتخذون من دون الله آلهة بدعوى أنها تقربهم من الله زلفى؟ وهذه هى العاقبة وهذا هو المصير ؟

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا : أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا : يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هٰذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا : بَلَى وَرَبِّنَا ، قَالَ : فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ .

« فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، بَلَاغٌ ، فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ؟ » ..

هذا الشوط الأخير جولة جديدة فى مجال القضية التى تعالجها السورة؛فسياقة قصة النفر من الجن الذين استمعوا لهذا القرآن ، فتنادوا بالإنصات،واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ويبشرونهم بالغفران والنجاة ، ويحذرونهم الإعراض والضلال . سياقة الخبر فى هذا المجال ، بهذه الصورة ، وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا المس الذى يتمثل فى قولهم : « أنصتوا » عندما طرق أسماعهم ، كما يتمثل فيما حكوه لقومهم عنه ، وفيما دعوهم إليه . كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر ، الذين جاء القرآن لهم فى الأصل . وهو إيقاع مؤثر ولاشك ،يلفت هذه القلوب لفتة عنيفة عميقة.وفى الوقت ذاته تجىء الإشارة إلى الصلة بين كتاب موسى وهذا القرآن على لسان الجن ، فتعلن هذه الحقيقة التى يدركها الجن ويغفل عنها البشر . ولايخفى مافى هذه اللفتة من إيحاء عميق متفق مع ماجاء فى السورة .

كذلك مايرد فى كلام الجن من الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح ، ودلالته على قدرة الله الظاهرة فى خلق السماوات والأرض ، الشاهدة بقدرته على الإحياء والبعث. وهى القضية التى يجادل فيها البشر وبها يجحدون .

وبمناسبة البعث يعرض مشهدا من مشاهد القيامة« يوم يعرض الذين كفروا على النار » ..

وفى الختام تجىء الوصية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصبر عليهم وعدم الاستعجال لهم . وتركهم للأجل المرسوم . وهو قريب قريب كأنه ساعة من نهار..للبلاغ .. قبل الهلاك !

***

« وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما

قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين . أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شىء قدير » . .

ومقالة النفر من الجن — مع خشوعهم عند سماع القرآن — تتضمن أسس الاعتقاد الكامل : تصديق الوحى . ووحدة العقيدة بين التوراة والقرآن . والاعتراف بالحق الذى يهدى إليه . والإيمان بالآخرة وما ينتهى إلى المغفرة وما ينتهى إلى العذاب من الأعمال . والإقرار بقوة الله وقدرته على الخلق وولايته وحده للعباد . والربط بين خلق الكون وإحياء الموتى . . وهى الأسس التى تتضمنها السورة كلها ، والقضايا التى تعالجها فى سائر أشواطها . . كلها جاءت على لسان النفر من الجن . من عالم آخر غير عالم الإنسان .

ويحسن قبل أن نستعرض هذه المقالة أن نقول كلمة عن الجن وعن الحادثة . .

إن ذكر القرآن لحادث صرف نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبى — صلى الله عليه وسلم — وحكاية ما قالوا وما فعلوا . . هذا وحده كاف بذاته لتقرير وجود الجن ، ولتقرير وقوع الحادث. ولتقرير أن الجن هؤلاء يستطيعون أن يستمعوا للقرآن بلفظه العربى المنطوق كما يلفظه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان وللكفران ، مستعدون للهدى وللضلال . . وليس هنالك من حاجة إلى زيادة تثبيت أو توكيد لهذه الحقيقة ؛ فما يملك إنسان أن يزيد الحقيقة التى يقررها الله — سبحانه — ثبوتا .

ولكننا نحاول إيضاح هذه الحقيقة فى التصور الإنسانى .

إن هذا الكون من حولنا حافل بالأسرار ، حافل بالقوى والخلائق المجهولة لنا كنها وصفة وأثرا . ونحن نعيش فى أحضان هذه القوى والأسرار . نعرف منها القليل ، ونجهل منها الكثير . وفى كل يوم نكشف بعض هذه الأسرار ، وندرك بعض هذه القوى ، ونتعرف إلى بعض هذه الخلائق. تارة بذواتها . وتارة بصفاتها. وتارة بمجرد آثارها فى الوجود من حولنا .

ونحن مانزال فى أول الطريق . طريق المعرفة لهذا الكون ، الذى نعيش نحن وآباؤنا وأجدادنا ويعيش أبناؤنا وأحفادنا ، على ذرة من ذراته الصغيرة الصغيرة . . هذا الكوكب الأرضى الذى لايبلغ أن يكون شيئا يذكر فى حجم الكون أووزنه !

وماعرفناه اليوم — ونحن فى أول الطريق — يعد بالقياس إلى معارف البشرية قبل خمسة قرون فقط عجائب أضخم من عجيبة الجن. ولوقال قائل للناس قبل خمسة قرون عن شيء من أسرار الذرة التى نتحدث عنها اليوم لظنوه مجنونا ، أولظنوه يتحدث عما هو أشد غرابة من الجن قطعا !

ونحن نعرف ونكشف فى حدود طاقتنا البشرية ، المعدة للخلافة فى هذه الأرض ، ووفق مقتضيات هذه الخلافة ، وفى دائرة ماسخره الله لنا ليكشف لنا عن أسراره ،وليكون لنا ذلولا ، كيما نقوم بواجب الخلافة فى الأرض..ولاتتعدى معرفتنا وكشوفنافى طبيعتها وفى مداها- مهما امتد بنا الأجل -أى بالبشرية- ومهما سخر لنا من قوى الكون وكشف لنا من أسراره- لاتتعدى تلك الدائرة . دائرة مانحتاجه للخلافة فى هذه الأرض . وفق حكمة الله وتقديره .

وسنكشف كثيرا ، وسنعرف كثيرا،وستتفتح لنا عجائب من أسرار هذا الكون وطاقاته، مما قد تعتبر أسرار الذرة بالقياس إليه لعبة أطفال ! ولكننا سنظل فى حدود الدائرة المرسومة للبشر فى المعرفة .وفى حدود قول الله -سبحانه- « وماأوتيتم من العلم إلا قليلا»..قليلا بالقياس إلى مافى هذا الوجود من أسرار وغيوب لايعلمها إلا خالقه وقيومه . وفى حدود تمثيله لعلمه غير المحدود ، ووسائل المعرفة البشرية المحدودة بقوله : « ولوأن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله » ..

فليس لنا — والحالة هذه — أن نجزم بوجود شيء أونفيه . وبتصوره أوعدم تصوره . من عالم الغيب المجهول ، ومن أسرار هذا الوجود وقواه ، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلى أوتجاربنا المشهودة . ونحن لم ندرك بعد كل أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها ، فضلا على إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا !

وقد تكون هنالك أسرار ليست داخلة فى برنامج مايكشف لنا عنه أصلا. وأسرار ليست داخلة فى برنامج مايكشف لنا عن كنهه ، فلا يكشف لنا إلاعن صفته أوآثره أومجرد وجوده ، لأن هذا لايفيدنا فى وظيفة الخلافة فى الأرض .

فإذا كشف الله لنا عن القدر المقسوم لنا من هذه الأسرار والقوى . عن طريق كلامه — لاعن طريق تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه أيضا — فسبيلنا فى هذه

الحالة أن تتلقى هذه الهبة بالقبول والشكر والتسليم. تتلقاها كما هى فلا تزيد عليها ولا تنقص منها. لأن المصدر الوحيد الذى تتلقى عنه مثل هذه المعرفة لم يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة . وليس هنالك مصدر آخر تتلقى عنه مثل هذه الأسرار !

ومن هذا النص القرآنى . ومن نصوص سورة الجن . والأرجح أنها تعبير عن الحادث نفسه . ومن النصوص الأخرى المتناثرة فى القرآن عن الجن . ومن الآثار النبوية الصحيحة عن هذ الحادث . نستطيع أن ندرك بعض الحقائق عن الجن .. ولا زيادة ..

هذه الحقائق تتلخص فى أن هنالك خلقا اسمه الجن . مخلوق من النار . لقول إبليس فى الحديث عن آدم : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » .. وإبليس من الجن لقوله الله تعالى : « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » .. فأصله من أصل الجن .

وأن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر. منها خلقته من نار، ومنها أنه يرى الناس ولا يراه الناس ، لقوله تعالى عن إبليس ـ وهو من الجن ـ: « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » ..

وأن له تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر فى قبائل وأجناس . للقول السابق : «إنه يراكم هو وقبيله . . . ».

وأن له قدرة على الحياة فى هذا الكوكب الأرضى ـ لا ندرى أين ـ لقوله تعالى : لآدم وإبليس معا : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » ..

والجن الذين سخروا لسليمان عليه السلام كانوا يقومون له بأعمال فى الأرض تقتضى أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها .

وأن له قدرة كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب لقول الله تعالى حكاية عن الجن : «وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ،وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » . .

وأنه يملك التأثير فى إدراك البشر وهو مأذون فى توجيه الضالين منهم ـ غير عباد الله ـ للنصوص السابقة ، ولقوله تعالى فى حكاية حوار إبليس اللعين : « قال :فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين» .. وغير هذا من النصوص المماثلة. ولكنا لا نعرف كيف يوسوس ويوجه وبأى أداة .

وأنه يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لغته ، بدلالة استماع نفر من الجن للقرآن وفهمه والتأثر به .

وأنه قابل للهدى وللضلال بدلالة قول هذا النفر فى سورة الجن : « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » .. وبدليل ذهابهم إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الإيمان ، بعد ماوجدوه فى نفوسهم، وعلموا أن قومهم لم يجدوه بعد .

وهذا هو القدر المستيقن فى أمر الجن ، وهو حسبنا، بلازيادة عليه ليس علها من دليل .

فأما الحادث الذى تشير إليه هذه الآيات ، كما تشير إليه سورة الجن كلها على الأرجح ، فقد وردت فيه روايات متعددة تثبت أصحها :

أخرج البخارى – بإسناده – عن مسدد ، ومسلم عن شيبان ابن فروخ عن أبى عوانة . وروى الإمام أحمد فى مسنده قال: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة. وقال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه دلائل النبوة : أخبرنا أبو الحسن على ابن أحمد ابن عبدان ، أخبرنا أحمد ابن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل القاضى ، أخبرنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما قال : « ما قرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ . وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا: مالكم ؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلاشىء حدث ، فاضربوا فى مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ماهذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون فى مشارق الأرض ومغاربها ، يبتغون ماهذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر . فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء . فهنالك حين رجعوا إلى قومهم : وقالوا : «ياقومنا إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا » .. وأنزل الله على نبيه – صلى الله عليه وسلم – : « قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » .. وإنما أوحى إليه قول الجن » .

وأخرج مسلم وأبوداود والترمذى ـ بإسناده ـ عن علقمة ،قال:قلت لابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ هل صحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منكم أحد ليلة الجن ؟ قال . ماصحبه أحد منا ولكنا كنا معه ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب . فقلنا : استطير ، أو اغتيل. فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فلما أصبحنا فإذا هو جاء من قبل حراء . فقلنا : يارسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم .فقال : « أتانى داعى الجن فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن » . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد فقال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله تعالى عليه ، يقع فى أيديكم أوفر مايكون لحما،وكل بعرة أوروثة علف لدوابكم » . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « فلاتستنجوا بهما فانهما طعام إخوانكم » . .

وقال : ساق ابن إسحاق ـ فيما رواه ابن هشام فى السيرة ـ خبر النفر من الجن بعد خبر خروج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، بعد موت عمه أبى طالب ، واشتداد الأذى عليه وعلى المسلمين فى مكة . ورد ثقيف له ردا قبيحا ، وإغرائهم السفهاء والأطفال به ، حتى أدموا قدميه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحجارة . فتوجه إلى ربه بذلك الابتهال المؤثر العميق الكريم : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ،وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بى غضبك ، أويحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى.ولاحول ولاقوة إلا بك ».

قال : ثم إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انصرف من الطائف راجعا إلى مكة، حين يئس من خير ثقيف . حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى،فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى . وهم ـ فيما ذكر لى ـ سبعة نفر من جن نصيبين. فاستمعوا له . فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين. قد آمنوا وأجابوا إلى ماسمعوا.فقص الله خبرهم عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الله عز وجل :« وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن » إلى قوله تعالى : « ويجركم من عذاب أليم » .. وقال تعالى: « قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » إلى آخر القصة من خبرهم فى هذه السورة .

ويعقب ابن كثير فى التفسير على رواية ابن اسحاق بقوله : « وهذا صحيح.ولكن قوله:

إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء ، كما دل عليه حديث ابن عباس — رضى الله عنهما — المذكور ، وخروجه — صلى الله عليه وسلم — إلى الطائف كان بعد موت عمه. وذلك قبل الهجرة بسنة أوسنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره . والله أعلم».

وهناك روايات أخرى كثيرة . ونحن نعتمد من جميع هذه الروايات الرواية الأولى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — لأنها هى التى تتفق تماما مع النصوص القرآنية : « قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » . . وهى قاطعة فى أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — إنما علم بالحادث عن طريق الوحى ، وأنه لم ير الجن ولم يشعر بهم. ثم إن هذه الرواية هى الأقوى من ناحية الإسناد والتخريج . وتتفق معها فى هذه النقطة رواية ابن إسحاق . كما يقويها ما عرفناه من القرآن من صفة الجن : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم » . .

وفى هذا غناء فى تحقيق الحادث .

* * *

« وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين » . .

لقد كان إذن تدبيرا من الله أن يصرف هؤلاء النفر من الجن إلى استماع القرآن ، لامصادفة عابرة . وكان فى تقدير الله أن تعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة كما عرفت من قبل رسالة موسى ؛ وأن يؤمن فريق منهم وينجوا من النار المعدة لشياطين الجن كما هى معدة لشياطين الإنس .

ويرسم النص مشهد هذا النفر — وهم مابين ثلاثة وعشرة — وهم يستمعون إلى هذا القرآن، ويصور لنا ماوقع فى حسهم منه، من الروعة والتأثر والرهبة والخشوع . « فلما حضروه قالوا : أنصتوا » . . وتلقى هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع .

« فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين » . .

وهذه كتلك تصور الأثر الذى انطبع فى قلوبهم من الإنصات للقرآن. فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية . فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم ، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه ، أو التلكؤ فى إبلاغه والإنذار به . وهى حالة من امتلأ حسه بشىء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه دفعا إلى الحركة به والاحتفال بشأنه ، وإبلاغه للآخرين فى جد واهتمام :

« قالوا : ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » ..

ولوا إلى قومهم مسارعين يقولون لهم : إنا سمعنا كتابا جديدا أنزل من بعد موسى، يصدق كتاب موسى فى أصوله . فهم إذن كانوا يعرفون كتاب موسى ، فأدركوا الصلة بين الكتابين بمجرد سماع آيات من هذا القرآن ، قد لايكون فيها ذكر لموسى ولالكتابه ، ولكن طبيعتها تشى بأنها من ذلك النبع الذى نبع منه كتاب موسى . وشهادة هؤلاء الجن البعيدين ـ نسبياً ـ عن مؤثرات الحياة البشرية ، بمجرد تذوقهم لآيات من القرآن ، ذات دلالة وذات إيحاء عميق .

ثم عبروا عما خالج مشاعرهم منه ، وماأحست ضمائرهم فيه ، فقالوا عنه :

« يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » ..

ووقع الحق والهدى فى هذا القرآن هائل ضخم ، لايقف له قلب غير مطموس ؛ ولاتصمد له روح غير معاندة ولامستكبرة ولامشدودة بالهوى الجامح اللئيم . ومن ثم لمس هذه القلوب لأول وهلة ، فإذا هى تنطق بهذه الشهادة ، وتعبر عما مسها منه هذا التعبير .

ثم مضوا فى نذارتهم لقومهم فى حماسة المقتنع المندفع، الذى يحس أن عليه واجبا فى النذارة لابد أن يؤديه :

« ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ، يغفرلكم من ذنوبكم، ويجركم من عذاب أليم »..

قد اعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغتهمن إنس وجن؛ واعتبروا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ داعيا لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثقلين له : فنادوا قومهم : « ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به » ..

وآمنوا كذلك بالآخرة ، وعرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معهما غفران الذنب والإجارة من العذاب . فبشروا وأنذروا بهذا الذى عرفوه .

ويروى ابن إسحاق أنمقالة الجن انتهت عند هذه الآية.ولكن السياق يوحى بأن الآيتين التاليتين هما من مقولات النفر أيضا . ونحن نرجح هذا وبخاصة الآية التالية :

« ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء . أولئك فى ضلال مبين » ..

فهى تكملة طبيعية لنذارة النفر لقومهم.فقد دعوهم إلى الاستجابة والإيمان.فالاحتمال قوى.

وراجع أن يبينوا لهم أن عدم الاستجابة وخيم العاقبة . وأن الذى لايستجيب لايعجز الله أن يأتى به ويوقع عليه الجزاء ، ويذيقه العذاب الأليم ؛ فلايجد له من دون الله أولياء ينصرونه أويعينونه . وأن هؤلاء المعرضين ضالون ضلالا بينا عن الصراط المستقيم .

وكذلك الآية التى بعدها يحتمل كثيرا أن تكون من كلامهم ، تعجيبا من أولئك الذين لايستجيبون لله ؛ حاسبين أنهم سيفلتون ، أوأنه ليس هناك حساب ولاجزاء :

« أولم يرواأن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادرعلى أن يحيي الموتى؟ بلى . إنه على كل شىء قدير » ..

وهى لفتة إلى كتاب الكون المنظور،الذى ورد ذكره فى أول السورة. وكثيرا مايتضمن السياق القرآنى مثل هذا التناسق بين قول مباشر فى السورة ، وقول مثله يجىء فى قصة ، فيتم التطابق بين مصدرين على الحقيقة الواحدة .

وكتاب الكون يشهد بالقدرة المبدعة ابتداء لهذا الخلق الهائل : السماوات والأرض . ويوحى للحس البشرى بيسر الإحياء بعد الموت . وهذا الإحياء هو المقصود . وصياغة القضية فى أسلوب الاستفهام والجواب أقوى وآكد فى تقرير هذه الحقيقة .ثم يجىء التعقيب الشامل: « إنه على كل شىء قدير » . . فتضم الإحياء وغيره فى نطاق هذه القدرة الشاملة لكل شىء كان أو يكون .

* * *

وعند ذكر الإحياء يرتسم مشهد الحساب كأنه شاخص للعيون :

« ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ..

يبدأ المشهد حكاية أومقدمة لحكاية : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار » . .

وبينما السامع فى انتظار وصف ماسيكون ، إذا المشهد يشخص بذاته . وإذا الحوار قائم فى المشهد المعروض :

« أليس هذا بالحق ؟ » . .

وياله من سؤال؟بل يالها من قارعة للذين كانوا يكذبون ويستهزئون ويستعجلون ، واليوم تلوى أعناقهم على الحق الذى كانوا ينكرون :

والجواب فى خزى وفى مذلة وفى ارتياع .

« بلى . وربنا » ..

هكذا هم يقسمون: « وربنا » .. ربهم الذىكانوا لايستجيبون لداعيه ، ولايستمعون لنبيه، ولايعترفون له بربوبية . ثم هم اليوم يقسمون به على الحق الذى أنكروه !

عندئذ يبلغ السؤال غاية من الترذيل والتقريع ، ويقضى الأمر ، وينتهى الحوار :

« قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ..

« كلمة ورد غطاها » .. كما يقال ! الجريمة ظاهرة . الجانى معترف . فإلى الجحيم ! وسرعة المشهد هنا مقصودة . فالمواجهة حاسمة ، ولامجال لأخذ ولارد. لقدكانوا ينكرون. فالآن يعترفون . والآن يذوقون !

* * *

وعلى هذا المشهد الحاسم فى مصير الذين كفروا. وعلى مشهد الإيمان من أبناء عالم آخر . وفى ختام السورة التى عرضت مقولات الكافرين عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن القرآن الكريم .. يجىء الإيقاع الأخير . توجيها للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يصبر عليهم ، ولايستعجل لهم ، فقد رأى ماينتظرهم ، وهو منهم قريب :

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ولاتستعجل لهم،كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلاساعة من نهار . بلاغ . فهل يهلك إلاالقوم الفاسقون » ..

وكل كلمة فى الآية ذات رصيد ضخم؛ وكل عبارة وراءها عالم من الصور والظلال ، والمعانى والإيحاءات ، والقضايا والقيم .

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . ولاتستعجل لهم » . .

توجيه يقال لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذى احتمل مااحتمل،وعانى من قومه ماعانى. وهو الذى نشأ يتيما،وجرد من الولى والحامى ومن كل أسباب الأرض واحدا بعد واحد. الأب. والأم. والجد . والعم . والزوج الوفية الحنون. وخلص لله ولدعوته مجردا من كل شاغل. كما هو مجرد من كل سند أوظهير . وهو الذى لقى من أقاربه من المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين. وهو الذى خرج مرة ومرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرد فى كل مرة بلانصرة. وفى بعض المرات باستهزاء السفهاء ورجمهم له بالحجارة حتى تدمى قدماه الطاهرتان، فما يزيد على أن يتوجه إلى ربه بذلك الابتهال الخاشع النبيل .

وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه ربه : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولاتستعجل لهم » . .

ألا إنه لطريق شاق . طريق هذه الدعوة . وطريق مرير . حتى لتحتاج نفس كنفس محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تجردها وانقطاعها للدعوة ، وفى ثباتها وصلابتها ، وفى صفائها وشفافيتها . تحتاج إلى التوجيه الربانى بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين .

نعم . وإن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة ، وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر . وإن مرارته لتحتاج إلى جرعة حلوة من رحيق العطف الإلهى المختوم .

« فاصبر . كما صبر أولو العزم من الرسل ولاتستعجل لهم » . .

تشجيع وتصبير وتأسية وتسلية .. ثم تطمين :

« كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » ..

إنه أمد قصير . ساعة من نهار . وإنها حياة خاطفة تلك التى يمكثونها قبيل الآخرة . وإنها لتافهة لاتترك وراءها من الوقع والأثر فى النفوس إلا مثلما تتركه ساعة من نهار .. ثم يلاقون المصير المحتوم . ثم يلبثون فى الأبد الذى يدوم . وماكانت تلك الساعة إلا بلاغاً قبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم :

« بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » . .

لا . وماالله يريد ظلما للعباد . لا . وليصبر الداعية على مايلقاه . فما هى إلا ساعة من نهار . ثم يكون مايكون . . .

سورة محمد مدنية
وآياتها ٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ ، أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ، وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ـ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ـ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَاطِلَ ، وَأَنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ .

« فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَٰلِكَ ، وَلَوْ يَشَاءُ ٱللهُ لَٱنْتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلَـٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ ، وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ .

« يَا أَيُّهَا ٱلذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا ٱللهَ يَنْصُرْكُمْ ، وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ ، وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ ٱللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا ، وَأَنَّ ٱلْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ * إِنَّ ٱللهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ ٱلَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ .

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ؟ * مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ؟ » . .

هذه السورة مدنية ، ولها اسم آخر . اسمها سورة القتال . وهو اسم حقيقى لها . فالقتال هو موضوعها . والقتال هو العنصر البارز فيها . والقتال فى صورها وظلالها . والقتال فى جرسها وإيقاعها .

القتال موضوعها . فهى تبدأ ببيان حقيقة الذين كفروا وحقيقة الذين آمنوا فى صيغة هجوم أدبى على الذين كفروا، وتمجيد كذلك للذين آمنوا ،مع إيحاء بأن الله عدو للأولين وولى للآخرين ،وأن هذه حقيقة ثابتة فى تقدير الله سبحانه. فهو إذن إعلان حرب منه تعالى على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظ الأول فى السورة : «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد — وهو الحق من ربهم — كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » .

وعقب إعلان هذه الحرب من الله على الذين كفروا ، أمر صريح للذين آمنوا بخوض الحرب ضدهم . فى صيغة رنانة قوية ، مع بيان لحكم الأسرى بعد الإثخان فى المعركة والتقتيل العنيف : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » . .

ومع هذا الأمر بيان لحكمة القتال ، وتشجيع عليه، وتكريم للاستشهاد فيه ، ووعد من الله بإكرام الشهداء ، وبالنصر لمن يخوض المعركة انتصارا لله ، وبهلاك الكافرين وإحباط أعمالهم: « ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم . ياأيها الذين آمنوا إن

تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم. ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » .

ومعه كذلك تهديد عنيف للكافرين ، وإعلان لولاية الله ونصرته للمؤمنين ، وضياع الكافرين وخذلانهم وضعفهم وتركهم بلا ناصر ولا معين : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ دمرالله عليهم ، وللكافرين أمثالها. ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم » . . كذلك تهديد آخر للقرية التى أخرجت الرسول صلى الله عليه وسلم : « وكأى من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » . .

ثم تمضى السورة بعد هذا الهجوم العنيف السافر فى ألوان من الحديث حول الكفر والإيمان،وحال المؤمنين وحال الكافرين فى الدنيا والآخرة . فتفرق بين متاع المؤمن بالطيبات؛ وتمتع الكافرين بلذائذ الأرض كالحيوان : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار. والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنارمثوى لهم ».. كما تصف متاع المؤمنين فى الجنة بشتى الأشربة الشهية من ماء غير آسن ، ولبن لم يتغير طعمه ، وخمر لذة للشاربين ، وعسل مصفى ، فى وفر وفيض . . فى صورة أنهار جارية . . ذلك مع شتى الثمرات ، ومع المغفرة والرضوان . ثم سؤال : أهؤلاء « كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ؟ » . .

فإذا انقضت هذه الجولة الأولى فى المعركة السافرة المباشرة بين المؤمنين والكافرين . أعقبها فى السورة جولة مع المنافقين ، الذين كانوا هم واليهود بالمدينة يؤلفون خطرا على الجماعة الإسلامية الناشئة لا يقل عن خطر المشركين الذين يحاربونها من مكة وما حولها من القبائل فى تلك الفترة ، التى يبدو من الوقائع التى تشير إليها السورة أنها كانت بعد غزوة بدر ، وقبل غزوة الأحزاب وماتلاها من خضد شوكة اليهود، وضعف مركز المنافقين (كما ذكرنا فى تفسير سورة الأحزاب) .

والحديث عن المنافقين فى هذه السورة يحمل ظلالها . ظلام الهجوم والقتال . منذ أول إشارة . فهو يصور تلهيهم عن حديث رسول الله ، وغيبة وعيهم واهتمامهم فى مجلسه ؛ ويعقب عليه بما يدمغهم بالضلال والهوى ، : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » . .

ويهددهم بالساعةيوم لايستطيعون الصحو ولايملكون التذكر: « فهل ينظرون إلاالساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها . فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ؟ » ..

ثم يصور هلعهم وجبنهم وتهافتهم إذا ووجهوا بالقرآن يكلفهم القتال ـ وهم يتظاهرون بالإيمان ـ والفارق بينهم يومئذ وبين المؤمنين الصادقين : « ويقول الذين آمنوا : لولانزلت سورة !فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال،رأيت الذين فى قلوبهم‌مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ! » .

ويحثهم على الطاعة والصدق والثبات . ويرذل اتجاهاتهم ، ويعلن عليهم الحرب والطرد واللعن : « فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » ..

ويفضحهم‌فى توليهم للشيطان ، وفى تآمرهم‌مع اليهود،ويهددهم بالعذاب عند الموت بالفضيحة التى تكشف أشخاصهم فردا فردا فى المجتمع الإسلامى ، الذى يدمجون أنفسهم فيه ،وهم ليسوا منه ، وهم يكيدون له : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى ، الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله : سنطيعكم فى بعض الأمر .والله يعلم إسرارهم . فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ؟ ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم . أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكهم‌فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول .والله‌يعلم‌أعمالكم، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » . .

وفى الجولة الثالثة والأخيرة فى السورة عودة إلى الذين كفروا من قريش ومن اليهود وهجوم عليهم : « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول‌من بعد ماتبين لهم الهدى ـ لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم » ..

وتحذير للذين آمنوا أن يصيبهم مثل ماأصاب أعداءهم :« ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولاتبطلوا أعمالكم . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم » ..

وتحضيض لهم على الثبات عند القتال :« فلاتهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » . .

وتهوين من شأن الحياة الدنيا وأعراضها . وحض على البذل الذى يسره الله ، ولم يجعله استئصالا للمال كله ، رأفة بهم ، وهو يعرف شح نفوسهم البشرية ، وتبرمها وضيقها لوأحفاهم فى السؤال :

« إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولايسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » . .

وتختم السورة بما يشبه التهديد للمسلمين إنهم بخلوا بإنفاق المال ، وبالبذل فى القتال : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لايكونوا أمثالكم » . .

* * *

إنها معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها ؛ يظللها جو القتال ، وتتسم بطابعه فى كل فقراتها .

وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة : « أعمالهم . بالهم . أمثالهم . أهواءهم . أمعاءهم ... » . وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف فى الهواء : « أوزارها . أمثالها . أقفالها . . . » .

وهناك شدة فى الصور كالشدة فى جرس الألفاظ المعبرة عنها . . فالقتال أو القتل يقول عنه : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » . . والتقتيل والأسر يصوره بشدة : « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » . . والدعاء على الكافرين يجىء فى لفظ قاس : « فتعسا لهم وأضل أعمالهم » . . وهلاك الغابرين يرسم فى صورة مدوية ظلا ولفظا : « دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها » . . وصورة العذاب فى النار تجىء فى هذا المشهد : « وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم » . . وحالة الجبن والفزع عند المنافقين تجىء فى مشهد كذلك عنيف : « ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ! » . . حتى تحذير المؤمنين من التولى يجىء فى تهديد نهائى حاسم : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » . .

وهكذا يتناسق الموضوع والصور والظلال والإيقاع فى سورة القتال . .

* * *

« الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا

بما نزل على محمد ــ وهو الحق من ربهم ــ كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ؛ وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم. كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » ..

افتتاح يمثل الهجوم بلا مقدمة ولا تمهيد! وإضلال الأعمال الذى يواجه به الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله . سواء صدوا هم أم صدوا وصدوا غيرهم ــ يفيد ضياع هذه الأعمال وبطلانها . ولكن هذا المعنى يتمثل فى حركة . فإذا بنا نرى هذه الأعمال شاردة ضالة ، ونلمح عاقبة هذا الشرود والضلال ، فإذا هى الهلاك والضياع . وهى حركة تخلع ظل الحياة على الأعمال ، فكأنما هى شخوص حية أضلت وأهلكت. وتعمق المعنى وتلقى ظلاله . ظلال معركة تشرد فيها الأعمال عن القوم ، والقوم عن الأعمال . حتى تنتهى إلى الضلال والهلاك !

وهذه الأعمال التى أضلت ربما كان المقصود منها بصفة خاصة الأعمال التى يأملون من ورائها الخير . والتى يبدو على ظاهرها الصلاح . فلا قيمة لعمل صالح من غير إيمان . فهذا الصلاح شكلى لا يعبر عن حقيقة وراءه . والعبرة بالباعث الذى يصدر عنه العمل لا بشكل العمل . وقد يكون الباعث طيبا . ولكنه حين لا يقوم على الإيمان يكون فلتة عارضة أو نزوة طارئة . لا يتصل بمنهج ثابت واضح فى الضمير ، متصل بخط سير الحياة العريض ، ولا بناموس الوجود الأصيل. فلابد من الإيمان ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه فى كل اتجاهاتها ، وتتأثر به فى كل انفعالاتها . وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه . ويكون له هدفه ويكون له اطراده وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهى الذى يربط أجزاء هذا الكون كله فى الناموس ؛ ويجعل لكل عمل ولكل حركة وظيفة وأثرا فى كيان هذا الوجود ، وفى قيامه بدوره ، وانتهائه إلى غايته .

وفى الجانب الآخر : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم » .. والإيمان الأول يشمل الإيمان بما نزل على محمد . ولكن السياق يبرزه ويظهره ليصفه بصفته : « وهو الحق من ربهم » ويؤكد هذا المعنى ويقرره . وإلى جوار الإيمان المستكن فى الضمير ، العمل الظاهر فى الحياة . وهو ثمرة الإيمان الدالة على وجوده وحيويته وانبعاثه .

وهؤلاء : « كفر عنهم سيئاتهم » .. فى مقابل إبطال أعمال الذين كفروا ولو كانت حسنات فى شكلها وظاهرها . وبينما يبطل العمل ولو كان صالحا من الكافرين ، فإن السيئة تغفر للمؤمنين. وهو تقابل تام مطلق يبرز قيمة الإيمان وقدره عند الله ، وفى حقيقة الحياة . .

« وأصلح بالهم » . . وإصلاح البال نعمة كبرى تلى نعمة الإيمان فى القدر والقيمة والأثر.

والتعبير يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام. ومتى صلح البال، استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام . . وماذا بعد هذا من نعمة أومتاع؟ ألا إنه الأفق المشرق الوضيء الرفاف .

ولم كان هذا وكان ذاك؟ إنها ليست المحاباة . وليست المصادفة . وليس الجزاف . إنما هو أمر له أصله الثابت ، المرتبط بالناموس الأصيل الذى قام عليه الوجود يوم خلق الله السماوات والأرض بالحق ، وجعل الحق هو الأساس :

« ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » . .

والباطل ليست له جذور ضاربة فى كيان هذا الوجود؛ ومن ثم فهو ذاهب هالك؛ وكل من يتبعه وكل مايصدر عنه ذاهب هالك كذلك . ولما كان الذين كفروا اتبعوا الباطل فقد ضلت أعمالهم ، ولم يبق لهم منها شيء ذو غناء .

والحق ثابت تقوم عليه السماوات والأرض ، وتضرب جذوره فى أعماق هذا الكون . ومن ثم يبقى كل مايتصل به ويقوم عليه . ولما كان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، فلا جرم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم .

فهو أمر واضح مقرر يقوم على أصوله الثابتة ، ويرجع إلى أسبابه الأصيلة . وما هو فلتة ولامصادفة ولاجزاف !

« كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ».وكذلك يضع لهم القواعد التى يقيسون إليها أنفسهم وأعمالهم . فيعلمون المثل الذى ينتمون إليه ويقاسون عليه . ولايحتارون فى الوزن والقياس !

* * *

ذلك الأصل الذى قررته الآية الأولى فى السورة، يرتب عليه توجيه المؤمنين لقتال الكافرين. فهم على الحق الثابت الذى ينبغى أن يتقرر فى الأرض ، ويستعلى ويهيمن على أقدار الناس والحياة ليصل الناس بالحق وليقيم الحياة على أساسه . والذين كفروا على الباطل الذى ينبغى أن يبطل وتذهب آثاره من الحياة :

« فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق. فإما منا بعد وإما فداء . حتى تضع الحرب أوزارها » . .

واللقاء المقصود فى الآيه هنا هو اللقاء للحرب والقتال لامجرد اللقاء. فحتى نزول هذه السورة

كان المشركون فى الجزيرة منهم المحارب ومنهم المعاهد؛ ولم تكن بعد قد نزلت سورة « براءة » التى تنهى عهود المشركين المحددة الأجل إلى أجلها ، والمطلقة الأجل إلى أربعة أشهر ؛ وتأمر بقتل المشركين بعد ذلك أنى وجدوا فى أنحاء الجزيرة — قاعدة الإسلام — أو يسلموا .كى تخلص القاعدة للإسلام [1] .

وضرب الرقاب المأمور به عند اللقاء يجيء بعد عرض الإسلام عليهم وإبائهم له طبعا . وهو تصوير لعملية القتل بصورتها الحسية المباشرة ، وبالحركة التى تمثلها، تمشيا مع جو السورة وظلالها .

« فإذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » . .

والإثخان شدة التقتيل ، حتى تتحطم قوة العدو وتتهاوى ، فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع . وعندئذ — لاقبله — يؤسر من استأسر ويشد وثاقه . فأما والعدو مازال قويا فالإثخان والتقتيل يكون الهدف لتحطيم ذلك الخطر .

وعلى هذا لايكون هناك اختلاف — كما رأى معظم المفسرين بين مدلول هذه الآية ، ومدلول آية الأنفال التى عاتب الله فيها الرسول — صلى الله عليه وسلم — والمسلمين لاستكثارهم من الأسرى فى غزوة بدر. والتقتيل كان أولى . وذلك حيث يقول تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم فيه عذاب عظيم » [2] . . فالإثخان أولا لتحطيم قوة العدو وكسر شوكته ؛ وبعد ذلك يكون الأسر. والحكمة ظاهرة، لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام هى الهدف الأول من القتال . وبخاصة حين كانت القوة العددية للأمة المسلمة قليلة محدودة . وكانت الكثرة للمشركين .وكان قتل محارب يساوى شيئا كبيرا فى ميزان القوى حينذاك. والحكم مازال ساريا فى عمومه فى كل زمان بالصورة التى تكفل تحطيم قوة العدو ، وتعجيزه عن الهجوم والدفاع .

فأما الحكم فى الأسرى بعد ذلك، فتحدده هذه الآية .وهى النص القرآنى الوحيد المتضمن حكم الأسرى :

« فإما منا بعد وإما فداء » . .

أى إما أن يطلق سراحهم بعد ذلك بلا مقابل من مال أو من فداء لأسرى المسلمين . وإما أن يطلق مقابل فدية من مال أو عمل أو فى نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين .

(١) هنا الحكم لايسرى على المشركين خارج الجزيرة . فهؤلاء تقبل منهم الجزية إذا اختاروها .
(٢) تراجع فى الظلال فى سورة الأنفال جزء ١٠ ص ٢٤ — ٢٦ .

وليس فى الآية حالة ثالثة . كالاسترقاق أو القتل . بالنسبة لأسرى المشركين .

ولكن الذى حدث فعلا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والخلفاء من بعده استرقوا بعض الأسرى ـ وهو الغالب ـ وقتلوا بعضهم فى حالات معينة .

ونحن ننقل هنا ماورد حول هذه الآية فى كتاب (أحكام القرآن للإمام الجصاص الحنفى) ونعلق على مانرى التعليق عليه فى ثناياه . قبل أن نقرر الحكم الذى نراه :

* قال الله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » قال أبو بكر قد اقتضى ظاهره وجوب القتل لاغير إلابعد الإثخان . وهو نظير قوله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » .. (وهذا صحيح فليس بين النصين خلاف) .

* حدثنا محمد ابن جعفر ابن محمد ابن الحكم قال : حدثنا جعفر ابن محمد ابن اليمان . قال: حدثنا أبوعبيد . قال : حدثنا عبدالله ابن صالح ، عن معاوية ابن صالح ، عن على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ».قال: ذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى بعد هذا فى الأسارى : «فإما منا بعد وإما فداء»..فجعل الله النبى والمؤمنين فى الأسارى بالخيار. إن شاءوا قتلوهم،وإن شاءوا استعبدوهم،وإن شاءوافادوهم . شك أبو عبيد فى..وإن شاءوا استعبدوهم.. (والاستعباد مشكوك فى صدور القول به عن ابن عباس فنتركه . وأما جواز القتل فلانرى له سندا فى الآية وإنما نصها المن أوالفداء) .

* وحدثنا جعفر ابن محمد قال : حدثنا أبوعبيد ، قال : حدثنا أبو مهدى وحجاج ، كلاهما عن سفيان.قال :سمعت السدى يقول فى قوله:« فإما منا بعد وإما فداء »..قال :هى منسوخة، نسخها قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » : قال أبو بكر : أما قوله : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » . . وقوله : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » . . وقوله : « فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم » .. فإنه جائز أن يكون حكما ثابتا غير منسوخ . وذلك لأن الله تعالى أمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإثخان فى القتل وحظر عليه الأسر ـ إلابعد إذلال المشركين وقمعهم ـ وكان ذلك وقت قلة عدد المسلمين وكثرة عدد عدوهم من المشركين،فمتى أثخن المشركون وأذلوا بالقتل والتشريد جاز الاستبقاء. فالواجب أن يكون هذا حكماثابتا إذا وجد مثل الحال التى كان عليها المسلمون فى أول الإسلام. (ونقول:

إن الأمر بقتل المشركين حيث وجدوا خاص بمشركي الجزيرة . بينما النص فى سورة محمد عام . فمتى تحقق الإثخان فى الأرض جاز أخذ الأسارى .وهذا ماجرى عليه الخلفاء بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعد نزول سورة براءة بطبيعة الحال ، ولم يقتلوهم إلا فى حالات معينة سيأتى بيانها) ..

* وأما قوله: « فإما منا بعد وإما فداء » .. ظاهره يقتضى أحد شيئين: من أو فداء . وذلك ينفى جواز القتل .وقد اختلف السلف فى ذلك.حدثنا حجاج عن مبارك ابن فضالة عن الحسن أنه كره قتل الأسير ، وقال : منّ عليه أوفاده.وحدثنا جعفر قال: حدثنا أبو عبيد قال: أخبرنا هشيم . قال : أخبرنا أشعث قال : سألت عطاء عن قتل الأسير فقال : منّ عليه أوفاده . قال : وسألت الحسن . قال : يصنع به ماصنع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأسارى بدر ، يمن عليه أويفادى به . وروى عن ابن عمر أنه دفع إليه عظيم من عظماء اصطخر ليقتله ، فأبى أن يقتله ، وتلا قوله : « فإما منا بعد وإما فداء » . . وروى أيضا عن مجاهد ومحمد ابن سيرين كراهة قتل الأسير . وقد روينا عن السدى أن قوله:« فإما منا بعد وإما فداء»منسوخ بقوله: « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » . وروى مثله عن ابن جريج . حدثنا جعفر قال : حدثنا أبو عبيد قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج، قال:هى منسوخة . وقال : قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقبة ابن أبى معيط يوم بدر صبرا،قال أبو بكر: اتفق فقهاء الأمصار على جواز قتل الأسير لانعلم بينهم خلافا فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قتله الأسير ، منها قتله عقبة ابن أبى معيط ، والنضر ابن الحارث بعد الأسر يوم بدر. وقتل يوم أحد أباعزة الشاعر بعد ماأسر. وقتل بنى قريظة بعد نزولهم على حكم سعد ابن معاذ، فحكم فيهم بالقتل وسبى الذرية . ومن على الزبير ابن باطا من بينهم ، وفتح خيبر بعضها صلحا وبعضها عنوة ، وشرط على ابن أبى الحقيق ألا يكتم شيئا ، فلما ظهر على خيانته وكتمانه قتله . وفتح مكة وأمر بقتل هلال ابن خطل،ومقيس ابن حبابة،وعبد الله ابن أبى سرح ، وآخرين، وقال : « اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة » . ومن على أهل مكة ولم يغنم أموالهم.. وروى عن صالح ابن كيسان عن محمد ابن عبد الرحمان عن أبيه عبد الرحمان ابن عوف،أنه سمع أبابكر الصديق يقول:« وددت أنى يوم أتيت بالفجاءة لم أكن أحرقته، وكنت قتلته سريحا ، أو أطلقته نجيحا».وعن أبى موسى أنه قتل دهقان السوس بعد ماأعطاه الأمان

على قوم سماهم ونسى نفسه فلم يدخلها فى الأمان فقتله . فهذه آثار متواترة عن النبى — صلى الله عليه وسلم — وعن الصحابة فى جواز قتل الأسير وفى استبقائه . واتفق فقهاء الأمصار على ذلك .(وجواز القتل لايؤخذ من الآية ، ولكن يؤخذ من عمل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبعض الصحابة. وتتبع الحالات التى وقع فيها القتل يعطى أنها حالات خاصة، وراءها أسباب معينة غير مجرد التعرض للقتال والأسر . فالنضر ابن الحارث وعقبة ابن أبى معيط كلاهما كان له موقف خاص فى إيذاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإيذاء دعوته . وكذلك أبوعزة الشاعر ، ولبنى قريظة كذلك موقف خاص بارتضائهم حكم سعد ابن معاذ سلفا . وهكذا نجد فى جميع الحالات أسبابا معينة تفرد هذه الحالات من الحكم العام للأسرى الذى تقرره الآية: « فإما منا بعد وإما فداء ») . .

* وإنما اختلفوا فى فدائه ، فقال أصحابنا جميعا(يعنى الحنفية): لايفادى الأسير بالمال، ولايباع السبي من أهل الحرب فيردوا حربا. وقال أبو حنيفة: لايفادون بأسرى المسلمين أيضا، ولايردون حربا أبدا .وقال أبو يوسف ومحمد: لابأس أن يفادى أسرى المسلمين بأسرى المشركين . وهو قول الثورى والأوزاعى ، وقال الأوزاعى : لابأس ببيع السبي من أهل الحرب ، ولايباع الرجال إلا أن يفادى بهم المسلمون . وقال المزنى عن الشافعى : للإمام أن يمن على الرجال الذين ظهر عليهم أو يفادى بهم ، فأما المجيزون للفداء بأسرى المسلمين وبالمال فإنهم احتجوا بقوله: « فإما منا بعد وإما فداء » وظاهره يقتضى جوازه بالمال وبالمسلمين ؛ وبأن النبى — صلى الله عليه وسلم — فدى أسارى بدر بالمال . ويحتجون للفداء بالمسلمين بما روى ابن المبارك ، عن معمر ، عن أيوب ، عن أبى قلابة ، عن أبى المهلب ، عن عمران ابن حصين . قال : أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — وأسر أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — رجلا من بنى عامر ابن صعصعة ؛ فمر به النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو موثق ، فناداه ، فأقبل إليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : علام أحبس ؟ قال : « بجريرة حلفائك » . فقال الأسير : إنى مسلم ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم —: « لو قلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح » . ثم مضى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فناداه أيضا ، فأقبل ، فقال : إنى جائع فأطعمنى . فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « هذه حاجتك » . ثم إن النبى — صلى الله عليه وسلم — فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما . .(وحجة القائلين بالفداء أرجح فى تقديرنا

من حجة أصحاب الإمام الجصاص على الاختلاف فى الفداء بالمال أو بأسرى المسلمين) .

* وقد ختم الإمام الجصاص القول فى المسألة بترجيح رأى أصحابه الحنفية قال: وأما مافى الآية من ذكر المن أو الفداء ، وماروى فى أسارى بدر فإن ذلك منسوخ بقوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » . . وقد روينا ذلك عن السدى وابن جريج . وقوله تعالى : « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » إلى قوله: « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون». فتضمنت الآيتان وجوب القتال للكفار حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية . والفداء بالمال أو بغيره ينافى ذلك. ولم يختلف أهل التفسير ونقلة الآثار أن سورة « براءة » بعد سورة « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجب أن يكون الحكم المذكور فيها ناسخا للفداء المذكور فى غيرها .. (وقد سبق القول بأن هذا القتل للمشركين ـ أو الإسلام ـ مقصود به مشركو الجزيرة فهو حكم خاص بهم . أما غيرهم خارجها فتقبل منهم الجزية كما تقبل من أهل الكتاب . وقبول الجزية عند التسليم لاينفى أن يقع الأسرى فى أيدى المسلمين قبل التسليم . فهؤلاء الأسرى ما الحكم فيهم؟ نقول : إنه يجوز المن عليهم إذا رأى الإمام المصلحة ، أو الفداء بهم بالمال أو بالمسلمين، إذا ظل قومهم قوة لم تستسلم بعد ولم تقبل الجزية. فأما عند الاستسلام للجزية فالأمر منته بطبيعته وهذه حالة أخرى ، فحكم الأسرى يظل ساريا فى الحالة التى لم تنته بالجزية).

والخلاصة التى ننتهى إليها أن هذا النص هو الوحيد المتضمن حكم الأسرى. وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسر. وأنه هو الأصل الدائم للمسألة . وماوقع بالفعل خارجا عنه كان لمواجهة حالات خاصة وأوضاع وقتية . فقتل بعض الأسرى كان فى حالات فردية يمكن أن يكون لها دائما نظائر ؛ وقد أخذوا بأعمال سابقة على الأسر ، لابمجرد خروجهم للقتال . ومثال ذلك أن يقع جاسوس أسيرا فيحاكم على الجاسوسية لاعلى أنه أسير . وإنما كان الأسر مجرد وسيلة للقبض عليه .

ويبقى الاسترقاق . وقد سبق لنا فى مواضع مختلفة من هذه الظلال القول بأنه كان لمواجهة أوضاع عالمية قائمة ، وتقاليد فى الحرب عامة. ولم يكن ممكنا أن يطبق الإسلام فى جميع الحالات النص العام : « فإما منا بعد وإما فداء » .. فى الوقت الذى يسترق أعداء الإسلام من يأسرونهم من المسلمين . ومن ثم طبقه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بعض الحالات فأطلق بعض

الأسارى منا . وفادى ببعضهم أسرى المسلمين ، وفادى بعضهم بالمال . وفى حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لاتعالج بغير هذا الإجراء .

فإذا حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى،فإن الإسلام يرجع حينئذ إلى قاعدته الإيجابية الوحيدة وهى : « فإما منا بعد وإما فداء » لانقضاء الأوضاع التى كانت تقضى بالاسترقاق.فليس الاسترقاق حتميا،وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى فى الإسلام .

وهذا هو الرأى الذى نستوحيه من النص القرآنى الحاسم.ومن دراسة الأحوال والأوضاع والأحداث .. والله الموفق للصواب .

ويحسن أن يكون مفهوما أنى أجنح إلى هذا الرأى لأن النصوص القرآنية واستقراء الحوادث وظروفها يؤيده،لالأنه يهجس فى خاطرى أن استرقاق الأسرى تهمة أحاول أن أبرئ الإسلام منها ! إن مثل هذا الخاطر لايهجس فى نفسى أبدا، فلوكان الإسلام رأى هذا لكان هو الخير ، لأنه مامن إنسان يعرف شيئا من الأدب يملك أن يقول : إنه يرى خيرا مما يرى الله . إنما أنا أسير مع نص القرآن وروحه فأجنح إلى ذلك الرأى بإيحاء النص واتجاهه .

وذلك . . — أى القتال وضرب الرقاب وشد الوثاق واتباع هذه القاعدة فى الأسرى — « حتى تضع الحرب أوزارها » . . أى حتى تنتهى الحرب بين الإسلام وأعدائه المناوئين له . فهى القاعدة الكلية الدائمة . ذلك أن « الجهاد ماض إلى يوم القيامة » كما يقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى تكون كلمة الله هى العليا [1] .

* * *

والله لايكلف الذين آمنوا هذا الأمر ، ولايفرض عليهم هذا الجهاد ، لأنه يستعين بهم — حاشاه — على الذين كفروا . فهو سبحانه قادر على أن يقضى عليهم قضاء مباشرا ؛ وإنما هو ابتلاء الله لعباده بعضهم ببعض ؛ الابتلاء الذى تقدر به منازلهم :

« ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض . والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .

إن هؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، وأمثالهم فى الأرض كلها فى كل زمان من البغاة الطغاة المفسدين،الذين يظهرون فى ثوب البطش والاستكبار،ويتراءون لأنفسهم وللضالين من أتباعهم قادرين أقوياء . إن هؤلاء جميعا حفنة من الخلق . تعيش على ظهر هذه الهباءة

---

(١) من حديث أخرجه أبو داود — باسناده — عن أنس رضى الله عنه .

الصغيرة للسماة بالأرض ، بين هذه الكواكب والنجوم والمجموعات الفلكية والمجرات والعوالم التى لايعلم عددها ولامداها إلا الله فى هذا الفضاء الذى تبدو فيه هذه المجرات والعوالم نقطا متناثرة ، تكاد تكون ضائعة ، لايمسكها ولايجمعها ولاينسقها إلا الله .

فلا يبلغ هؤلاء ومن وراءهم من الأتباع . بل لايبلغ أهل هذه الأرض كلها . أن يكونوا نمالا صغيرة . لابل إنهم لايبلغون أن يكونوا هباء تتقاذفه النسمات. لابل إنهم لايبلغون شيئا أصلا حين يقفون أمام قوة الله .

إنما يتخذ الله المؤمنين — حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد إثخانهم — إنما يتخذهم سبحانه ستارا لقدرته . ولوشاء لانتصر من الكافرين جهرة . كما انتصر من بعضهم بالطوفان والصيحة والريح العقيم . بل لانتصر منهم من غير هذه الأسباب كلها . ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير . وهو يبتليهم ، ويربيهم ، ويصلحهم ، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار .

يريد ليبتليهم . وفى هذا الابتلاء يستجيش فى نفوس المؤمنين أكرم مافى النفس البشرية من طاقات واتجاهات . فليس أكرم فى النفس من أن يعز عليها الحق الذى تؤمن به ، حتى تجاهد فى سبيله ، فتقتل وتقتل ، ولاتسلم فى هذا الحق الذى تعيش له وبه ، ولاتستطيع الحياة بدونه ، ولاتحب هذه الحياة فى غير ظله .

ويريد ليربيهم . فيظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة فى أعراض هذه الأرض الفانية مما يعز عليهم أن يتخلوا عنه . ويظل يقوى فى نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص ، وينفى كل زغل ودخل ، حتى تصبح رغائبهم كلها فى كفة وفى الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد ، والتطلع إلى وجه الله ورضاه .. فترجح هذه وتشيل تلك . ويعلم الله من هذه النفوس أنها خيرت فاختارت ، وأنها تربت فعرفت ، وأنها لاتندفع بلا وعى ، ولكنها تقدر وتختار .

ويريد ليصلحهم . ففى معاناة الجهاد فى سبيل الله ، والتعرض للموت فى كل جولة ، مايعود النفس الاستهانة بهذا الخطر المخوف ، الذى يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازينهم وقيمهم ليتقوه . وهو هين هين عند من يعتاد ملاقاته . سواء سلم منه أو لاقاه . والتوجه به لله فى كل مرة يفعل فى النفس فى لحظات الخطر شيئا يقربه للتصور فعل الكهرباء بالأجسام ! وكأنه صياغة جديدة للقلوب والأرواح على صفاء ونقاء وصلاح .

ثم هى الأسباب الظاهرة لإصلاح الجماعة البشرية كلها،عن طريق قيادتها بأيدى المجاهدين. الذين فرغت نفوسهم من كل أعراض الدنيا وكل زخارفها ؛ وهانت عليهم الحياة وهم يخوضون غمار الموت فى سبيل الله . ولم يعد فى قلوبهم ما يشغلهم عن الله والتطلع إلى رضاه . . وحين تكون القيادة فى مثل هذه الأيدى تصلح الأرض كلها ويصلح العباد . ويصبح عزيزا على هذه الأيدى أن تسلم فى راية القيادة للكفر والضلال والفساد ؛ وهى قد اشترتها بالدماء والأرواح، وكل عزيز وغال أرخصته لتتسلم هذه الراية لا لنفسها ولكن لله !

ثم هو بعد ذلك كله تيسير الوسيلة لمن يريد الله بهم الحسنى لينالوا رضاه وجزاءه بغير حساب. وتيسير الوسيلة لمن يريد الله بهم السوءى ليكسبوا ما يستحقون عليه غضبه وعذابه . وكل ميسر لما خلق له . وفق مايعلمه الله من سره ودخيلته .

ومن ثم يكشف عن مصير الذين يقتلون فى سبيل الله :

« والذين قتلوا فى سبيل الله ، فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ، ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم » . .

لن يضل أعمالهم . . فى مقابل ما جاء عن الذين كفروا أنه أضل أعمالهم . فهى أعمال مهتدية واصلة مربوطة إلى الحق الثابت الذى صدرت عنه ، وانبعثت حماية له ، واتجاها إليه . وهى باقية من ثم لأن الحق باق لا يهدر ولا يضيع .

ثم نقف أمام هذه الحقيقة الهائلة . . حقيقة حياة الشهداء فى سبيل الله . . فهى حقيقة مقررة من قبل فى قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » . . ولكنها تعرض هنا عرضا جديدا . تعرض فى حالة امتداد ونماء فى طريقها الذى غادرت الحياة الدنيا وهى تسلكه وتتوخاه . طريق الطاعة والهداية والتجرد والنقاء :

« سيهديهم ويصلح بالهم » . .

فالله ربهم الذى قتلوا فى سبيله ، يظل يتعهدهم بالهداية ــ بعد الاستشهاد ــ ويتعهدهم بإصلاح البال ، وتصفية الروح من بقية أو شائب الأرض ؛ أو يزيدها صفاء لتتناسق مع صفاء الملإ الأعلى الذى صعدت إليه ، وإشراقه وسناه . فهى حياة مستمرة فى طريقها لم تنقطع إلا فيما يرى أهل الأرض المحجوبون . وهى حياة يتعهدها الله ربها فى الملإ الأعلى . ويزيدها هدى ، ويزيدها صفاء ، ويزيدها إشراقا . وهى حياة نامية فى ظلال الله .

وأخيرا يحقق لهم ماوعدهم :

« ويدخلهم الجنة عرفها لهم » ..

وقد ورد حديث عن تعريف الله الجنة للشهداء رواه الإمام أحمد فى مسنده قال : حدثنا زيد ابن نمر الدمشقى ، حدثنا ابن ثوبان ، عن أبيه ، عن مكحول ، عن كثير ابن مرة ، عن قيس الجذامى ـ رجل كانت له صحبة ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه ، تكفر عنه كل خطيئة،ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر، ويحلى حلة الإيمان » .. تفرد به أحمد . وقد روى حديثا آخر قريبا من هذا المعنى . وفيه النص على رؤية الشهيد لمقعده من الجنة . أخرجه الترمذى وصححه ابن ماجة .

فهذا تعريف الله الجنة للشهداء فى سبيله . وهذه هى نهاية الهداية الممتدة ، وإصلاح البال المستأنف بعد مغادرتهم لهذه الأرض . ونماء حياتهم وهداهم وصلاحهم هناك عند الله .

***

وفى ظل هذه الكرامة للذين قتلوا فى سبيل الله . وفى ظل ذلك الرضى ، وتلك الرعاية، وبلوغ ذلك المقام . يحرض الله المؤمنين على التجرد لله ، والاتجاه إلى نصرة نهجه فى الحياة ؛ ويعدهم على هذا النصر والتثبيت فى المعركة ؛ والتعس والضلال لأعدائهم وأعدائه :

« ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم.والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ماأنزل الله فأحبط أعمالهم » ..

وكيف ينصر المؤمنون الله، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ماشرط لهم من النصر والتثبيت ؟

إن لله فى نفوسهم أن تتجرد له ، وألاتشرك به شيئا ، شركا ظاهرا أوخفيا، وألاتستبقى فيها معه أحدا ولاشيئا ، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ماتحب وتهوى ، وأن تحكمه فى رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها ، وسرها وعلانيتها ، ونشاطها كله وخلجاتها . . فهذا نصر الله فى ذوات النفوس .

وإن لله شريعة ومنهاجا للحياة ، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة . ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ، ومحاولة تحكيمها فى الحياة كلها بدون استثناء ، فهذا نصر الله فى واقع الحياة .

وتقف لحظة أمام قوله تعالى : « والذين قتلوا فى سبيل الله » . . وقوله : « إن تنصروا الله » . .

وفى كلتا الحالتين . حالة القتل . وحالة النصرة . يشترط أن يكون هذا لله وفى سبيل الله. وهى لفتة بديهية ، ولكن كثيرا من الغبش يغطى عليها عندما تنحرف العقيدة فى بعض الأجيال . وعندما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص ، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم .

إنه لاجهاد ، ولاشهادة ، ولاجنة ، إلاحين يكون الجهاد فى سبيل الله وحده ، والموت فى سبيله وحده ، والنصرة له وحده ، فى ذات النفس وفى منهج الحياة .

لاجهاد ولاشهادة ولاجنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلة الله هى العليا . وأن تهيمن شريعته ومناهجه فى ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم، وفى أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء .

عن أبى موسى — رضى الله عنه — قال : سئل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . أى ذلك فى سبيل الله ! فقال: « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله [١] » .

وليس هنالك من راية أخرى،أوهدف آخر ، يجاهد فى سبيله من يجاهد، ويستشهد دونه من يستشهد ، فيحق له وعد الله بالجنة . إلاتلك الراية وإلا هذا الهدف . من كل مايروج فى الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات !

ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفتة البديهية،وأن يخلصوها فى نفوسهم من الشوائب التى تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة، وألا يلبسوا برايتهم راية ، ولا يخلطوا بتصورهم تصورا غريبا على طبيعة العقيدة .

لا جهاد إلا لتكون كلمة الله هى العليا . العليا فى النفس والضمير . والعليا فى الخلق والسلوك . والعليا فى الأوضاع والنظم . والعليا فى العلاقات والارتباطات فى كل أنحاء الحياة . وما عدا هذا فليس لله . ولكن للشيطان . وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد . وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام . وإنما هو الغبش وسوء التصور والانحراف .

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى .

وإذا عز على غير أصحاب الدعوة لله أن يتخلصوا من هذا الغبش وسوء التصور والانحراف ، فلا أقل من أن يخلص الدعاة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذى لا يتفق مع البديهية الأولى فى شرط الله ..

وبعد فهذا شرط الله على الذين آمنوا . فأما شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام. وعدالله لا يخلفه. فإذا تخلف فترة؛ فهو أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقق مع تحقق النصر والتثبيت(١). ذلك حين يصح أن المؤمنين وفوا بالشرط ثم تخلف عنهم ـ فترة ـ نصر الله .

ثم نقف لحظة أمام لفتة خاصة فى التعبير : « ينصركم . ويثبت أقدامكم » . .

إن الظن ينهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر ، ويكون سببا فيه . وهذا صحيح . ولكن تأخير ذكره فى العبارة يوحى بأن المقصود معنى آخر من معانى التثبيت . معنى التثبيت على النصر وتكاليفه . فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان ، وبين الحق والضلال . فللنصر تكاليفه فى ذات النفس وفى واقع الحياة . للنصر تكاليفه فى عدم الزهو به والبطر . وفى عدم التراخى بعده والتهاون . وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء. ولكن القليل هو الذى يثبت على النصر والنعماء . وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر . ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن . والعلم لله .

« والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم » . .

وذلك عكس النصر وتثبيت الأقدام فالدعاء بالتعس قضاء من الله سبحانه بالتعاسة والخيبة والخذلان . وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء ..

« ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » ..

وهو تصوير لما يعتمل فى قلوبهم ويختلج فى نفوسهم من الكراهية لما أنزل الله من قرآن وشريعة ومنهج واتجاه . وهذا هو الذى يدفع بهم إلى الكفر والعناد والخصومة والملاحاة . وهى حالة كثير من النفوس الفاسدة التى تكره بطبعها ذلك النهج السليم القويم ، وتصادمه من داخلها ، بحكم مغايرة طبيعتها لطبيعته . وهى نفوس يلتقى بها الإنسان كثيرا فى كل زمان وفى كل مكان . ويحس منها النفرة والكراهية لهذا الدين وما يتصل به ؛ حتى إنها لتفزع من مجرد ذكره كما لو كانت قد لدغتها العقارب ! وتتجنب أن يجىء ذكره أو الإشارة إليه فيما

(١) تراجع الظلال فى سورة الحج عند قوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » من ص ٩٦ إلى ص ٩٩ من الجزء ١٧ .

تسمع حولها من حديث! ولعلنا نشاهد فى هذه الأيام حالة من هذا الطراز لاتخفى على الملاحظة!

وكان جزاء هذه الكراهية لما أنزل الله ، أن أحبط الله أعمالهم . وإحباط الأعمال تعبير تصويرى على طريقة القرآن الكريم فى التعبير بالتصوير . فالحبوط انتفاخ بطون الماشية عند أكلها نوعا من المرعى سام . ينتهى بها إلى الموت والهلاك . وكذلك انتفخت أعمالهم وورمت وانبعجت . . ثم انتهت إلى الهلاك والضياع ! إنها صورة وحركة ، ونهاية مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله ثم تعاجبوا بالأعمال الضخام . المنتفخة كبطون الأنعام ، حين ترعى من ذلك النبت السام !

* * *

ثم يلوى أعناقهم إلى مصارع الغابرين قبلهم فى شدة وعنف :

« أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ دمر الله عليهم . وللكافرين أمثالها » . .

وهى لفتة عنيفة مروعة ، فيها ضجة وفرقعة . وفيها مشهد للذين من قبلهم يدمر عليهم كل ما حولهم ، وكل مالهم ، فإذا هو أنقاض متراكمة ، وإذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة . وذلك المشهد الذى يرسمه التعبير مقصود بصورته هذه وحركته ، والتعبير يحمل فى إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقعته فى انقضاضه وتحطمه !

وعلى مشهد التدمير والتحطيم والردم ، يلوح للحاضرين من الكافرين ، ولكل من يتصف بهذه الصفة بعد ، بأنها فى انتظارهم . هذه الوقعة المدمرة التى تدمر عليهم كل شىء وتدفنهم بين الأنقاض : « وللكافرين أمثالها » !

وتفسير هذا الأمر الهائل المروع الذى يدمر على الكافرين وينصر المؤمنين هو القاعدة الأصيلة الدائمة :

« ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لامولى لهم » . .

ومن كان الله مولاه وناصره فحسبه ، وفيه الكفاية والغناء ؛ وكل ماقد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير ، لاتخليا من الله عن ولايته له ، ولاتخلفا لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده . ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له ، ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء . فهو فى النهاية مضيع عاجز ؛ ولو تجمعت له كل أسباب الحماية وكل أسباب القوة التى يعرفها الناس !

* * *

ثم يوازن بين نصيب الذين آمنوا ونصيب الذين كفروا من المتاع بعد مابين نصيب هؤلاء وهؤلاء فيما يشتجر بينهم من قتال ونزال . مع بيان الفارق الأصيل بين متاع ومتاع :

« إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » . .

والذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون فى الأرض أحيانا من أطيب المتاع؛ ولكن الموازنة هنا إنما تقوم بين النصيب الحقيق الضخم للمؤمنين — وهو نصيبهم فى الجنة — والنصيب الكلى للكافرين الذى لانصيب لهم سواه .

ونصيب المؤمنين يتلقونه من يد الله فى جنات تجرى من تحتها الأنهار. فالله هو الذى يدخلهم. وهو إذن نصيب كريم علوى رفيع . وهم ينالونه من بين يدى الله فى علاه جزاء على الإيمان والصلاح ، متناسقا فى رفعته وكرامته مع الارتفاع المنطلق من الإيمان والصلاح .

ونصيب الذين كفروا متاع وأكل «كما تأكل الإنعام » . . وهو تصوير زرى، يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه؛ ويلقى ظلال الأكل الحيوانى الشره ، والمتاع الحيوانى الغليظ. بلاتذوق، وبلا تعفف عن جميل أوقبيح . . إنه المتاع الذى لاضابط له من إرادة ، ولا من اختيار ، ولاحارس عليه من تقوى ، ولارادع عنه من ضمير .

والحيوانية تتحقق فى المتاع والأكل ، ولوكان هناك ذوق مرهف للطعوم ، وحس مدرب فى اختيار صنوف المتاع ، كما يتفق هذا لكثير من الناشئين فى بيوت النعمة والثراء .وليس هذا هو المقصود . إنما المقصود هو حساسية الإنسان الذى يملك نفسه وإرادته ، والذى له قيم خاصة للحياة؛ فهو يختار الطيب عند الله : عن إرادة لايخضعها ضغط الشهوة، ولايضعفها هتاف اللذة. ولاتحسب الحياة كلها مائدة طعام،وفرصة متاع؛ بلاهدف بعد ذلك ولاتقوى فيما يباح ومالايباح!

إن الفارق الرئيسى بين الإنسان والحيوان : أن للإنسان إرادة وهدفاوتصوراخاصا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة ، المتلقاة من الله خالق الحياة . فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه ، وأهم المزايا التى من أجلها كرمه الله .

* * *

وتعترض سلسلة الموازنات بين الذين آمنوا والذين كفروا لفتة إلى القرية التى أخرجت الرسول — صلى الله عليه وسلم — وموازنة بينها وبين القرى الهالكة وكانت أشد قوة منها :

« وكأى من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم »..

وهى آية يروى أنها نزلت فى الطريق بين مكة والمدينة فى أثناء رحلة الخروج والهجرة، تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسرية عنه؛ وتهوينا من شأن المشركين الجبارين الذين وقفوا فى وجه الدعوة ، وآذوا أصحابها ، حتى هاجروا من أرضهم وأهلهم وأموالهم فرارا بعقيدتهم .

* * *

ثم يمضى فى الموازنة بين حال الفريقين؛ ويعلل لم كان الله ولى المؤمنين يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار فى الآخرة ، بعد النصر والكرامة فى الدنيا ؟ ولم كان الذين كفروا لا مولى لهم معرضين للهلاك فى الدنيا ـ بعد حياة حيوانية هابطة ـ وللعذاب فى الآخرة والثوى فى النار والإقامة :

« أفمن كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم ؟ » ..

فهو فارق أصيل فى الحالة التى عليها الفريقان ؛ وفى المنهج والسلوك سواء . فالذين آمنوا « على بينة من ربهم » .. رأوا الحق وعرفوه ، واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم فتلقوا عنه ، وهم على يقين مما يتلقون .غير مخدوعين ولا مضللين.والذين كفروا زين لهم سوء عملهم، فرأوه حسنا وهو سيء؛ ولم يروا ولم يستيقنوا ، « واتبعوا أهواءهم » .. بلا ضابط يرجعون إليه ، ولا أصل يقيسون عليه ، ولا نور يكشف لهم الحق من الباطل .

أهؤلاء كهؤلاء ؟ إنهم يختلفون حالا ومنهجا واتجاها. فلا يمكن أن يتفقوا ميزانا ولا جزاء ولا مصيرا !

وهذه صورة من صور التفرقة بين هؤلاء وهؤلاء فى المصير:

« مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ؛ ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم . كمن هو خالد فى النار ، وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ؟ » ..

إن هذه الصور الحسية من النعيم والعذاب ترد فى مواضع من القرآن.وقد تجيء معها صور معنوية أو تجيء مجردة .كما أن صور النعيم والعذاب المجردة عن الحسيات تجيء فى مواضع أخرى.

والله الذى خلق البشر ، أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يؤثر فى قلوبهم ، وما يصلح لتربيتهم ـ

ثم مايصلح لنعيمهم ولعذابهم . والبشر صنوف ، والنفوس ألوان ، والطبائع شتى . تلتقى كلها فى فطرة الإنسان ، ثم تختلف وتتنوع بحسب كل إنسان . ومن ثم فصل الله ألوان النعيم والعذاب، وصنوف المتاع والآلام ، وفق علمه المطلق بالعباد . .

هنالك ناس يصلح لتربيتهم ولاستجاشة همتهم للعمل كما يصلح لجزائهم ويرضى نفوسهم أن يكون لهم أنهار من ماء غير آسن ، أوأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، أوأنهار من عسل مصفى، أوأنهار من خمر لذة للشاربين . أوصنوف من كل الثمرات . مع مغفرة من ربهم تكفل لهم النجاة من النار والمتاع بالجنات .. فلهؤلاء مايصلح لتربيتهم ، ومايليق لجزائهم .

وهنالك ناس يعبدون الله لأنهم يشكرونه على نعمه التى لايحصونها . أولأنهم يحبونه ويتقربون إليه بالطاعات تقرب الحبيب للحبيب. أولأنهم يستحيون أن يراهم الله على حالة لايحبها. ولاينظرون وراء ذلك إلى جنة أو إلى نار ، ولا إلى نعيم أو عذاب على الإطلاق ، وهؤلاء يصلح لهم تربية ويصلح لهم جزاء أن يقول الله لهم : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان ودا » .. أو أن يعلموا أنهم سيكونون : « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » ..

ولقد روى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه كان يصلى حتى تتفطر رجلاه . فقالت له عائشة — رضى الله عنها — يارسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر؟ قال — صلى الله عليه وسلم — : « ياعائشة أفلا أكون عبدا شكورا ؟ » (١) ..

وتقول رابعة العدوية : « أولو لم تكن جنة ولانار لم يعبد اللهَ أحد ، ولم يخشه أحد ؟ » .

وتجيب سفيان الثورى وقد سألها : ماحقيقة إيمانك ؟ تقول : ماعبدته خوفا من ناره ، ولاحبا لجنته ، فأكون كالأجير السوء . عبدته شوقا إليه »..

وبين هذا اللون وذلك ألوان من النفوس والمشاعر والطباع .. وكلها تجد — فيما جعله الله من نعيم وعذاب ، ومن ألوان الجزاء — مايصلح للتربية فى الأرض ؛ ومايناسب للجزاء عند الله.

وللملاحظ عموما أن صور النعيم والعذاب ترق وتشف كلما ترقى الساممون فى مراقى التربية والتهذيب على مدى نزول القرآن. وحسب أنواع المخاطبين ، والحالات المتنوعة التى كانت تخاطب بالآيات . وهى حالات ونماذج تتكرر فى البشرية فى جميع الأعصار .

وهنا نوعان من الجزاء : هذه الأنهار مع كل الثمرات مع المغفرة من الله . والنوع الآخر : « كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم » ..

---

(١) أخرجه مسلم فى الصحيح من رواية عبدالله ابن وهب .

وهى صورة حسية عنيفة من العذاب ، تناسب جو سورة القتال ،وتتناسب مع غلظ طبيعة القوم . وهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام. فالجو جو متاع غليظ وأكل غليظ. والجزاء ماء حميم ساخن وتقطيع للأمعاء ، التى كانت تحش وتلتهم الأكل كالأنعام !

ولن يكون هؤلاء كهؤلاء فى الجزاء ، كما أنهم فى الحال والمنهج ليسوا سواء ..

* ***

بهذا يختم الجولة الأولى التى بدأت بالهجوم عند افتتاح السورة، واستمرت فى معركة متصلة ، عنيفة ، حتى الختام ..

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : مَاذَا قَالَ آنِفًا ؟ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ، وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ * فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ؟ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ؟ * فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ .

« وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا : لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ! فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟

« إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ : سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ

وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ، وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ .

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ؟ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » . .

هذه الجولة مع المنافقين ، وموقفهم إزاء شخص رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإزاء القرآن . ثم موقفهم من الجهاد الذى فرضه الله على المسلمين لإعلاء كلمة الله. وأخيرا موقفهم من اليهود وتآمرهم معهم سرا للإيقاع بالإسلام والمسلمين .

وحركة النفاق حركة مدنية ، لم يكن لها وجود فى مكة ، لأنه لم يكن هناك ما يدعو إليها . فالمسلمون فى مكة كانوا فى موقف المضطهد ، الذى لايحتاج أحد أن ينافقه! فلما أعز الله الإسلام والمسلمين بالأوس والخزرج فى المدينة ، وانتشاره فى العشائر والبيوت بحيث لم يبق بيت إلادخله الإسلام ، اضطر ناس ممن كرهوا لمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وللإسلام أن يعز ويستعلى، ولم علكوا فى الوقت ذاته أن يجهروا بالعداوة، اضطروا إلى التظاهر بالإسلام على كره.وهم يضمرون الحقد والبغضاء ، ويتربصون بالرسول وأصحابه الدوائر . وعلى رأسهم عبد الله ابن أبىّ ابن سلول رأس النفاق المعروف .

وكان وجود اليهود فى المدينة وتمتعهم فيها بقوة عسكرية وقوة اقتصادية وقوة تنظيمية فى أول العهد المدنى . وكراهيتهم كذلك لظهور محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ودينه وأتباعه. كان وجود اليهود على هذا الوضع مشجعا للمنافقين . وسرعان ماجمعتهم البغضاء والحقد فأخذوا فى حبك المؤامرات ودس الدسائس فى كل مناسبة تعرض . فإن كان المسلمون فى شدة ظهروا بعدائهم وجهروا ببغضائهم ؛ وإذا كانوا فى رخاء ظلت الدسائس سرية والمكايد فى الظلام ! وكانوا إلى منتصف العهد المدنى يؤلفون خطرا حقيقيا على الإسلام والمسلمين . .

وقد تواتر ذكر المنافقين ، ووصف دسائسهم ، والتنديد بمؤامراتهم وأخلاقهم فى السور

المدنية : كما تكرر ذكر اتصالهم باليهود ، وتلقيهم عنهم ، واشتراكهم معهم في بعض المؤامرات المحبوكة . وهذا أحد المواضع التي وردت فيها الإشارة إلى المنافقين، والإشارة كذلك إلى اليهود .

* * *

« ومنهم من يستمع إليك ، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم » ..

ولفظة : « ومنهم » تحتمل أن تكون إشارة للذين كفروا الذين كان يدور الحديث عنهم في الجولة السابقة في السورة . باعتبار أن المنافقين في الحقيقة فرقة من الكفار مستورة الظاهر ، والله يتحدث عنها بحقيقتها في هذه الآية .

كما تحتمل أن تكون إشارة للمسلمين باعتبار أن المنافقين مندمجون فيهم ، متظاهرون بالإسلام معهم . وقد كانوا يعاملون معاملة المسلمين بحسب ظاهرهم ، كما هو منهج الإسلام في معاملة الناس .

ولكنهم في كلتا الحالتين هم المنافقون كما تدل عليه صفتهم في الآية وفعلهم ، وكما يدل السياق في هذه الجولة من السورة ، والحديث فيها عن المنافقين .

وسؤالهم ذاك بعد استماعهم للرسول — صلى الله عليه وسلم — والاستماع معناه السماع باهتمام — يدل على أنهم كانوا يتظاهرون تظاهرا بأنهم يلقون سمعهم وبالهم للرسول — صلى الله عليه وسلم — وقلوبهم لاهية غافلة . أو مطموسة مغلقة . كما أنه قد يدل من جانب آخر على الغمز الخفي اللئيم . إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم : إن مايقوله محمد لايفهم ، أو لايعني شيئا يفهم . فهاهم أولاء مع استماعهم له ، لايجدون له فحوى ولايمسكون منه بشيء ! كذلك قد يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل مايقوله محمد — صلى الله عليه وسلم — وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه — كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم مع كل كلمة يتلفظ بها الرسول الكريم — فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية .. وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين :

« أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » ..

ذلك حال المنافقين ، فأما حال المهتدين فهو على النقيض :

« والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » ..

وترتيب الوقائع فى الآية يستوقف النظر . فالذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء ، فكافأهم الله بزيادة الهدى ، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل : « وآتاهم تقواهم ».. والتقوى حالة فى القلب تجعله أبدا واجفا من هيبة الله ، شاعرا برقابته ، خائفا من غضبه ، متطلعا إلى رضاه ، متحرجا من أن يراه الله على هيئة أوفى حالة لايرضاها . . هذه الحساسية المرهفة هى التقوى . . وهى مكافأة يؤتيها الله من يشاء من عباده ، حين يهتدون هم ويرغبون فى الوصول إلى رضى الله .

والهدى والتقوى والحساسية حالة تقابل حالة النفاق والانطماس والغفلة فى الآية السابقة .

ومن ثم يعود بعد هذه اللفتة إلى الحديث عن أولئك الناقفين المطموسين الغافلين ، الذين يخرجون من مجلس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم يعوا مما قال شيئا ينفعهم ويهديهم . ويستجيش قلوبهم للتقوى ، ويذكرهم بما ينتظر الناس من حساب وجزاء :

« فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها . فأنى لهم — إذا جاءتهم — ذكراهم ؟ »

وهى جبذة قوية تخرج الغافلين من الغفلة بعنف ، كما لو أخذت بتلابيب مخمور وهززته هزا !

ماذا ينتظر هؤلاء الغافلون الذين يدخلون مجالس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويخرجون منها ، غير واعين ، ولاحافظين ، ولامتذكرين ؟ ماذا ينتظرون ؟ « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ » . . فتفجأهم وهم سادرون غارون غافلون !

هل ينظرون إلا الساعة ؟ « فقد جاء أشراطها » . ووجدت علاماتها. والرسالة الأخيرة أضخم هذه العلامات ، فهى إيذان بأنها النذارة الأخيرة قرب الأجل المضروب. وقد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بأصبعيه السبابة والتى تليها. (١) وإذا كان الزمن يلوح ممتدا منذ هذه الرسالة الأخيرة ؛ فإن أيام الله غير أيامنا. ولكنها فى حساب الله قد جاءت الأشراط الأولى ؛ وماعاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذه الساعة بغتة حيث لا يملك صحوا ولاذكرا :

« فأنى لهم — إذا جاءتهم — ذكراهم ؟ » . .

إنها الهزة القوية العنيفة التى تخرج الغافلين من غفلتهم ؛ والتى تتفق كذلك مع طابع السورة العنيف .

---

(١) أخرجه الشيخان عن سهل ابن سعد رضى الله عنه .

ثم يتجه الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المهتدين المتقين المتطلعين؛ ليأخذوا طريقا آخر . طريق العلم والمعرفة والذكر والاستغفار ، والشعور برقابة الله وعلمه الشامل المحيط ؛ ويعيشوا بهذه الحساسية يرتقبون الساعة وهم حذرون متأهبون :

« فاعلم أنه لاإله إلاالله ؛ واستغفر لذنبك ، وللمؤمنين والمؤمنات ؛ والله يعلم متقلبكم ومثواكم » ..

وهو التوجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التى يقوم عليها أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه :

« فاعلم أنه لاإله إلا الله » .

وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها فى الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى :

« واستغفر لذنبك » ..

وهو المغفور له ماتقدم من ذنبه وماتأخر . ولكن هذا واجب العبد المؤمن الشاعر الحساس الذى يشعر أبدا بتقصيره مهما جهد ؛ ويشعر ـ وقد غفر له ـ أن الاستغفار ذكر وشكر على الغفران . ثم هو التلقين المستمر لمن خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ممن يعرفون منزلته عند ربه ؛ ويرونه يوجه إلى الذكر والاستغفار لنفسه . ثم للمؤمنين والمؤمنات . وهو المستجاب الدعوة عند ربه . فيشعرون بنعمة الله عليهم بهذا الرسول الكريم . وبفضل الله عليهم وهو يوجهه لأن يستغفر لهم ، ليغفر لهم !

واللمسة الأخيرة فى هذا التوجيه :

« والله يعلم متقلبكم ومثواكم » . .

حيث يشعر القلب المؤمن بالطمأنينة وبالخوف جميعا . الطمأنينة وهو فى رعاية الله حيثما تقلب أوثوى . والخوف من هذا الموقف الذى يحيط به علم الله ويتعقبه فى كل حالاته ، ويطلع على سره ونجواه ..

إنها التربية . التربية باليقظة الدائمة والحساسية المرهفة ، والتطلع والحذر والانتظار . .

* * *

وينتقل السياق إلى تصوير موقف المنافقين من الجهاد ، وما يعتمل فى نفوسهم من جبن وخور وذعر وهلع عند مواجهة هذا التكليف ، ويكشف دخيلتهم فى هذا الأمر ، كما يكشف

لهم ما ينتظرهم لو ظلوا على هذا النفاق ، ولم يخلصوا ويستجيبوا ويصدقوا الله عند ما يعزم الأمر ويتحتم الجهاد :

« ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة . فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت، فأولى لهم طاعة وقول معروف ، فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم. فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم! أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ » . .

وتطلع الذين آمنوا إلى تنزيل سورة : إما أن يكون مجرد تعبير عن شوقهم إلى سورة جديدة من هذا القرآن الذى يحبونه، ويجدون فى كل سورة منه زادا جديدا حبيبا . وإما أن يكون تطلعا إلى سورة تبين أمرا من أمور الجهاد ، وتفصل فى قضية من قضايا القتال تشغل بالهم . فيقولون : « لولا نزلت سورة ! » .

« فإذا أنزلت سورة محكمة » . . فاصلة بينة لا تحتمل تأويلا « وذكر فيها القتال » . . أى الأمر به ، أو بيان حكم المتخلفين عنه ، أو أى شأن من شؤونه ، إذا بأولئك « الذين فى قلوبهم مرض » . . وهو وصف من أوصاف المنافقين . . يفقدون تماسكهم ، ويسقط عنهم ستار الرياء الذى يتسترون به ، وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف ، ويبدون فى حالة تزرى بالرجال ، يصورها التعبير القرآنى المبدع صورة فريدة كأنها معروضة للأنظار :

« رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » . .

وهو تعبير لا تمكن محاكاته ، ولا ترجمته إلى أى عبارة أخرى . وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع . والضعف إلى حد الرعشة . والتخاذل إلى حد الغشية ! ويبقى بعد ذلك متفردا حافلا بالظلال والحركة التى تشغف الخيال ! وهى صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان ، ولا بفطرة صادقة ، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر . وهى هى طبيعة المرض والنفاق!

وبينا هم فى هذا التخاذل والتهافت والانهيار تمتد إليهم يد الإيمان بالزاد الذى يقوى العزائم، ويشد القوائم لو تناولوه فى إخلاص :

« فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم » . .

نعم . أولى لهم من هذه الفضيحة.ومن هذا الخور . ومن هذا الهلع . ومن هذا النفاق .. أولى لهم « طاعة وقول معروف » . . طاعة تستسلم لأمر الله عن طمأنينة ، وتنهض بأمره عن ثقة . وقول معروف يشي بنظافة الحس واستقامة القلب ، وطهارة الضمير. وأولى لهم إذا عزم الأمر ، وجد الجد ، وواجهوا الجهاد أن يصدقوا الله . يصدقوه عزيمة ، ويصدقوه شعورا . فيربط على قلوبهم ، ويشد من عزائمهم ، ويثبت أقدامهم ، وييسر المشقة عليهم ، ويهون الخطر الذى يتمثلونه غولا تفغر فاها لتلتهمهم!ويكتب لهم إحدى الحسنيين:النجاة والنصر،أوالاستشهاد والجنة .. هذا هو الأولى . وهذا هو الزاد الذى يقدمه الإيمان فيقوى العزائم ويشد القوائم، ويذهب بالفزع ، ويحل محله الثبات والاطمئنان .

وبينما هو يتحدث عنهم يلتفت إليهم مباشرة ليخاطبهم مقرعا مهددا بسوء العاقبة لوقادهم حالهم هذا إلى النكسة والتولى إلى الكفر ؛ وخلع ذلك الستار الرقيق من الإسلام :

« فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ » . .

وهذا التعبير . . « هل عسيتم » . . يفيد ماهو متوقع من حال المخاطبين . ويلوح لهم بالنذير والتحذير .. احذروا فإنكم منتهون إلى أن تعودوا إلى الجاهلية التى كنتم فيها. تفسدون فى الأرض وتقطعون الأرحام ، كما كان شأنكم قبل الإسلام .

وبعد هذه اللفتة للفزعة المنذرة لهم يعود إلى الحديث عنهم لو انتهوا إلى هذا الذى حذرهم إياه :

« أولئك الذين لعنهم الله ، فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ » .

أولئك الذين يظلون فى مرضهم ونفاقهم حتى يتولوا عن هذا الأمر الذى دخلوا فيه بظاهرهم ولم يصدقوا الله فيه ، ولم يستيقنوه. « أولئك الذين لعنهم الله » .. وطردهم وحجبهم عن الهدى، « فأصمهم وأعمى أبصارهم » . . وهم لم يفقدوا السمع ، ولم يفقدوا البصر ؛ ولكنهم عطلوا السمع وعطلوا البصر ، أوعطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر ؛ فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدى هذه الوظيفة .

ويتساءل فى استنكار: « أفلا يتدبرون القرآن » .. وتدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح ـفذ ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير . وينشىء

حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير، « أم على قلوب أقفالها ؟ » فهى تحول بينها وبين القرآن وبينها وبين النور ؟ فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التى لاتسمح بالهواء والنور !

***

ويمضى فى تصوير حال المنافقين ، وسبب توليهم عن الإيمان بعد إذ شارفوه ، فيتبين أنه تآمرهم مع اليهود ، ووعدهم لهم بالطاعة فيما يدبرون :

« إن الذين ارتدوا على أدبارهم ـ من بعد ماتبين لهم الهدى ـ الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله: سنطيعكم فى بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم » . .

والتعبير يرسم معنى رجوعهم عن الهدى بعد ما تبين لهم ، فى صورة حركة حسية . حركة الارتداد على الأدبار . ويكشف ما وراءها من وسوسة الشيطان وتزيينه وإغرائه . فإذا ظاهر هذه الحركة وباطنها مكشوفان مفهومان ! وهم المنافقون الذين يتخفون ويتسترون ! ثم يذكر السبب الذى جعل للشيطان عليهم هذا السلطان ، وانتهى بهم إلى الارتداد على الأدبار بعد ما عرفوا الهدى وتبينوه :

« ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر » . .

واليهود فى المدينة هم أول من كرهوا ما نزل الله ؛ لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون الرسالة الأخيرة فيهم ، وأن يكون خاتم الرسل منهم ؛ وكانوا يستفتحون على الذين كفروا ويوعدونهم ظهور النبى الذى يقودهم ويمكن لهم فى الأرض ، ويسترجع ملكهم وسلطانهم . فلما اختار الله آخر رسله من نسل إبراهيم ، من غير يهود ، كرهوا رسالته . حتى إذا هاجر إلى المدينة كرهوا هجرته ، التى هددت ما بقى لهم من مركز هناك . ومن ثم كانوا إلبا عليه منذ أول يوم ، وشنوا عليه حرب الدس والمكر والكيد ، حينما عجزوا عن مناصبته العداء جهرة فى ميادين القتال ؛ وانضم إليهم كل حانق ، وكل منافق ، وظلت الحرب سجالا بينهم وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أجلاهم فى آخر الأمر عن الجزيرة كلها وخلصها للإسلام .

وهؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم قالوا لليهود : « سنطيعكم فى بعض الأمر » . . والأرجح أن ذلك كان فى الدس والكيد والتآمر على الإسلام ورسول الإسلام .

« والله يعلم إسرارهم » .

وهو تعقيب كله تهديد . فأين يذهب تآمرهم وإسرارهم وماذا يؤثر ؛ وهو مكشوف لعلم الله ؟ معرض لقوة الله ؟

ثم التهديد السافر بجند الله ، والمتآمرون في نهاية الحياة :

« فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم » !

وهو مشهد مفزع مهين . وهم يحتضرون . ولاحول لهم ولا قوة . وهم في نهاية حياتهم على هذه الأرض . وفي مستهل حياتهم الأخرى . هذه الحياة التي تفتتح بضرب الوجوه والأدبار . في لحظة الوفاة ، لحظة الضيق والكرب والمخافة . الأدبار التي ارتدوا عليها من بعد ماتبين لهم الهدى ! فيالها من مأساة !

« ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله ، وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم » ..

فهم الذين أرادوا لأنفسهم هذا المصير واختاروه . هم الذين عمدوا إلى ماأسخط الله من نفاق ومعصية وتآمر مع أعداء الله وأعداء دينه ورسوله فاتبعوه . وهم الذين كرهوا رضوان الله فلم يعملوا له ، بل عملوا مايسخط الله ويغضبه .. « فأحبط أعمالهم » .. التي كانوا يعجبون بها ويتعاجبون ؛ ويحسبونها مهارة وبراعة وهم يتآمرون على المؤمنين ويكيدون. فإذا بهذه الأعمال تتضخم وتنتفخ . ثم تهلك وتضيع !

***

وفي نهاية الشوط يتهددهم بكشف أمرهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمسلمين ، الذين يعيشون بينهم متخفين ؛ يتظاهرون بالإسلام وهم لهم كائدون :

« أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم؟ولو نشاء لأريناكهم ، فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم في لحن القول ، والله يعلم أعمالكم ./ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » ..

ولقد كان المنافقون يعتمدون على إتقانهم فن النفاق ، وعلى خفاء أمرهم في الغالب على المسلمين . فالقرآن يسفه ظنهم أن هذا الأمر سيظل خافيا ، ويهددهم بكشف حالهم وإظهار أضغانهم وأحقادهم على المسلمين . ويقول لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :« ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم » . . أي لو نشاء لكشفنا لك عنهم بذواتهم وأشخاصهم ، حتى لترى أحدهم فتعرفه من ملامحه(وكان هذا قبل أن يكشف الله له عن نفر منهم بأسمائهم)ومع ذلك فإن لهجتهم ونبرات صوتهم ، وإمالتهم للقول عن استقامته ، وانحراف منطقهم في خطابك سيدلك على نفاقهم :

« ولتعرفنهم في لحن القول » ..

ويعرج على علم الله الشامل بالأعمال وبواعثها : « والله يعلم أعمالكم » .. فلاتخفى عليه منها خافية . .

ثم وعد من الله بالابتلاء . ابتلاء الأمة الإسلامية كلها ، لينكشف المجاهدون والصابرون ويتميزوا وتصبح أخبارهم معروفة ، ولايقع الالتباس فى الصفوف ، ولايبقى مجال لخفاء أمر المنافقين ولاأمر الضعاف والجزعين :

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم »..

والله يعلم حقائق النفوس ومعادنها،ويطلع على خفاياها وخباياها ، ويعلم مايكون من أمرها علمه بما هو كائن فعلا . فما هذا الابتلاء ؟ ولمن يكون العلم من ورائه بما يتكشف عنه ؟

إن الله ـ جلت حكمته ـ يأخذ البشر بما هو فى طوقهم ، وماهو من طبيعتهم واستعدادهم. وهم لايعلمون عن الحقائق المستكنة مايعلمه. فلابد لهم من تكشف الحقائق ليدركوها ويعرفوها ويستيقنوها ، ثم ينتفعوا بها .

والابتلاء بالسراء والضراء ، وبالنعماء والبأساء ، وبالسعة والضيق، وبالفرج والكرب... كلها تتكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس ، وماهو مجهول من أمرها حتى لأصحابها . .

أما المراد بعلم الله لما تتكشف عنه النفوس بعد الابتلاء فهو تعلق علمه بها فى حالتها الظاهرة التى يراها الناس عليها .

ورؤية الناس لها فى صورتها التى تدركها مداركهم هو الذى يؤثر فيهم ويكيف مشاعرهم، ويوجه حياتهم ، بوسائلهم الداخلة فى طوقهم . وهكذا تتم حكمة الله فى الابتلاء .

ومع هذا فإن العبد المؤمن يرجو ألايتعرض لبلاء الله وامتحانه . ويتطلع إلى عافيته ورحمته . فإذا أصابه بلاء الله بعد هذا صبر له ، وهو مدرك لما وراءه من حكمة ؛ واستسلم لمشيئة الله واثقا من حكمته ، متطلعا إلى رحمته وعافيته بعد الابتلاء .

وقد روى عن الفضيل العابد الصوفى أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لاتبلنا .. فإنك إن بلوتنا فضحتنا ، وهتكت أستارنا ، وعذبتنا . .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ، وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ ، وَشَاقُّوا ٱلرَّسُولَ ـ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ـ لَنْ يَضُرُّوا ٱللهَ شَيْئًا ، وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ، فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .

« فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ، وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ ، وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ * إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ، وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ * هَاأَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ . وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » . .

الحديث فى الشطر الأول من هذا الشوط الأخير من السورة عن « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ماتبين لهم الهدى » .. وهؤلاء ، الأقرب أن يكونوا هم المشركين الذين كان الحديث عنهم فى أول السورة . فهم الذين ينطبق عليهم هذا التبجح فى الوقوف للدعوة الإسلامية . التبجح الذى يعبرعنه بالصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان هناك احتمال آخر ، وهو أن يكون الحديث عاما لكل من يقف هذا الموقف ؛ يشمل اليهود فى المدينة ويشمل المنافقين ، على سبيل التهديد لهم إذا هموا أن يقفوا مثل هذا الموقف جهرة أوسرا . ولكن الاحتمال الأول أقرب على كل حال .

أما الحديث فى الشطر الثانى والأخير حتى ختام السورة فهو خطاب للمؤمنين ، يدعوهم إلى مواصلة الجهاد بالنفس وبالمال ، دون تراخ أودعوة إلى مهادنة الكفر المعتدى الظالم ، تحت أى مؤثر من ضعف أومراعاة قرابة أورعاية مصلحة . ودون بخل بالمال الذى لايكلفهم الله أن ينفقوا منه إلافى حدود مستطاعة ، مراعيا الشح الفطرى فى النفوس ! وإن لاينهضوا بتكاليف هذه الدعوة فإن الله يحرمهم كرامة حملها والانتداب لها ، ويستبدل بهم قوما غيرهم ينهضون بتكاليفها ، ويعرفون قدرها . وهو تهديد عنيف مخيف يناسب جو السورة ، كما يشى بأنه كان علاجا لحالات نفسية قائمة فى صفوف المسلمين إذ ذاك ـ من غير المنافقين ـ وذلك إلى جانب

حالات التفانى والتجرد والشجاعة والفداء التى اشتهرت بها الروايات. فقد كان فى الجماعة المسلمة هؤلاء وهؤلاء . وكان القرآن يعالج ويربى لينهض بالمتخلفين إلى المستوى العالى الكريم ..

* * *

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، وشاقوا الرسول — من بعد ماتبين لهم الهدى — لن يضروا الله شيئا ، وسيحبط أعمالهم » ..

إنه قرار من الله مؤكد ، ووعد منه واقع : أن الذين كفروا ، ووقفوا فى وجه الحق أن يبلغ إلى الناس ؛ وصدوا الناس عنه بالقوة أو المال أو الخداع أو أية وسيلة من الوسائل ، وشاقوا الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى حياته بإعلان الحرب عليه ، والمخالفة عن طريقه ، والوقوف فى غير صفه . أو بعد وفاته بمحاربة دينه وشريعته ومنهجه والمتبعين لسنته والقائمين على دعوته . وذلك « من بعد ماتبين لهم الهدى » . . وعرفوا أنه الحق ؛ ولكنهم اتبعوا الهوى ، وجمح بهم العناد ، وأعماهم الغرض ، وقادتهم المصلحة العاجلة ..

قرار من الله مؤكد ، ووعد من الله واقع أن هؤلاء « لن يضروا الله شيئا » .. وهم أضأل وأضعف من أن يذكروا فى مجال إلحاق ضرر بالله سبحانه وتعالى . فليس هذا هو المقصود . إنما المقصود أنهم لن يضروا دين الله ولا منهجه ولا القائمين على دعوته . ولن يحدثوا حدثا فى نواميسه وسننه . مهما بلغ من قوتهم ، ومهما قدروا على إيذاء بعض المسلمين فترة من الوقت . فإن هذا بلاء وقتى يقع بإذن الله لحكمة يريدها ؛ وليست ضرا حقيقيا لناموس الله وسنته ونظامه ونهجه وعباده القائمين على نظامه ونهجه . والعاقبة مقررة : « وسيحبط أعمالهم » .. فتنتهى إلى الخيبة والدمار ، كما تنتهى الماشية التى ترعى ذلك النبات السام !

وفى ظل هذا المصير المخيف للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول .. يلتفت إلى الذين آمنوا ليحذرهم ظل هذا المصير ، ويوجههم إلى طاعة الله وطاعة الرسول :

« ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولاتبطلوا أعمالكم » ..

وهذا التوجيه يوحى بأنه كان فى الجماعة المسلمة يومئذ من لايتحرى الطاعة الكاملة ؛ أو من تثقل عليه بعض التكاليف ، وتشق عليه بعض التضحيات ، التى يقتضيها جهاد هذه الطوائف القوية المختلفة التى تقف للإسلام ، وتناوشه من كل جانب ؛ والتى تربطها بالمسلمين مصالح ووشائج قربى يصعب فصمها والتخلى عنها نهائيا كما تقتضى العقيدة ذلك .

ولقد كان وقع هذا التوجيه عنيفا عميقا فى نفوس المسلمين الصادقين ؛ فارتعشت له قلوبهم ، وخافوا أن يقع منهم مايبطل أعمالهم ، ويذهب بحسناتهم ..

قال الإمام أحمد ابن نصر المروزى فى كتاب الصلاة : حدثنا أبو قدامة ، حدثنا وكيع ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن الربيع ابن أنس ، عن أبى العالية ، قال : كان أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يرون أنه لايضر مع لاإله إلا الله ذنب ، كما لاينفع مع الشرك عمل ، فنزلت : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولاتبطلوا أعمالكم » .. فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

وروى من طريق عبد الله ابن المبارك ، أخبرنى بكر ابن معروف ، عن مقاتل ابن حيان ، عن نافع ، عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : « كنا معشر أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نرى أنه ليس شىء من الحسنات إلامقبول ، حتى نزلت : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولاتبطلوا أعمالكم » .. فقلنا : ماهذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش . حتى نزل قوله تعالى : « إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » .. فلما نزلت كففنا من القول فى ذلك. فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش. ونرجو لمن لم يصبها .

ومن هذه النصوص يتجلى كيف كانت نفوس المسلمين الصادقين تتلقى آيات القرآن . كيف تهتز لها وتضطرب ، وكيف ترتجف منها وتخاف ، وكيف تحذر أن تقع تحت طائلتها ، وكيف تتحرى أن تكون وفقها ، وإن تطابق أنفسها عليها . . وبهذه الحساسية فى تلقى كلمات الله كان المسلمون مسلمين من ذلك الطراز !

ثم بين الله لهم فى الآية التالية مصير الذين يشاقون رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويخرجون عن طاعته ، ثم يصرون على هذا ، ويذهبون من هذه الأرض كافرين :

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، ثم ماتوا وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم » . .

فالفرصة متاحة فقط للمغفرة فى هذه الدنيا ؛ وباب التوبة يظل مفتوحا للكافر والعاصى حتى يغرغر . فإذا بلغت الروح الحلقوم فلاتوبة ولامغفرة ، فقد ذهبت الفرصة التى لاتعود .

ومثل هذه الآية يخاطب المؤمنين كما يخاطب الكفار . فأما هؤلاء فهى نذارة لهم ليتداركوا أمرهم ويتوبوا قبل أن تغلق الأبواب . وأما أولئك فهى تحذير لهم وتنبيه لاتقاء كافة الأسباب التى تقرب بهم من هذا الطريق الخطر المشؤوم !

ندرك هذا من ترتيب النهى عن الوهن والدعوة إلى السلم فى الآية التالية على ماورد فى الآية السابقة من بيان لمصير الكافرين الشاقين :

« فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ، وأنتم الأعلون والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم » ..

فهذا هو الذى يحذر المؤمنين إياه، ويضع أمامهم مصير الكفار الشاقين للرسول، ليحذروا شبحه من بعيد !

وهذا التحذير يشى بوجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة ؛ وتهن عزائمهم دونه؛ ويرغبون فى السلم والمهادنة ليستريحوا من مشقة الحروب. وربما كان بعضهم ذوى قرابة فى المشركين ورحم ، أو ذوى مصالح وأموال ؛ وكان هذا يجنح بهم إلى السلم والمهادنة . فالنفس البشرية هى هى ؛ والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن وهذه الخواطر الفطرية بوسائلها . وقد نجحت نجاحا خارقا . ولكن هذا لاينفى أن تكون هناك رواسب فى بعض النفوس ، وبخاصة فى ذلك الوقت المبكر من العهد المدنى . وهذه الآية بعض العلاج لهذه الرواسب . فلننظر كيف كان القرآن يأخذ النفوس . فنحن فى حاجة إلى تحرى خطوات القرآن فى التربية . والنفوس هى النفوس :

« فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . وأنتم الأعلون . والله معكم . ولن يتركم أعمالكم » . .

أنتم الأعلون . فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . أنتم الأعلون اعتقادا وتصورا للحياة . وأنتم الأعلون ارتباطا وصلة بالعلى الأعلى . وأنتم الأعلون منهجا وهدفا وغاية . وأنتم الأعلون شعورا وخلقا وسلوكا . . ثم . . أنتم الأعلون قوة ومكانا ونصرة . فمعكم القوة الكبرى : « والله معكم » . . فلستم وحدكم . إنكم فى صحبة العلى الجبار القادر القهار . وهو لكم نصير حاضر معكم . يدافع عنكم . فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم ؟ وكل ما تبذلون ، وكل ما تعملون، وكل مايصيبكم من تضحيات محسوب لكم ، لا يضيع منه شىء عليكم : «ولن يتركم أعمالكم».. ولن يقطع منها شيئا لا يصل إليكم أثره ونتيجته وجزاؤه .

فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم ، من يقرر الله — سبحانه — له أنه الأعلى ، وأنه معه . وأنه لن يفقد شيئا من عمله . فهو مكرم منصور مأجور ؟

هذه هى اللمسة الأولى . واللمسة الثانية تهوين من شأن هذه الحياة الدنيا ، التى قد يصيبهم بعض التضحيات فيها . وتوفية كاملة فى الآخرة للأجور مع عدم إرهاقهم ببذل المال مقابل هذه الأجور !

«إنما الحياة الدنيا لعب ولهو . وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ، ولا يسألكم أموالكم» .

والحياة الدنيا لعب ولهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى . حين تعاش لذاتها مقطوعة عن منهج الله فيها . ذلك المنهج الذى يجعلها مزرعة الآخرة ؛ ويجعل إحسان الخلافة فيها هو الذى يستحق وراثة الدار الباقية . وهذا هو الذى تشير إليه الفقرة التالية فى الآية : « وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم » . . فالإيمان والتقوى فى الحياة الدنيا هو الذى يخرجها عن أن تكون لعبا ولهوا ؛ ويطبعها بطابع الجد ، ويرفعها عن مستوى المتاع الحيوانى ، إلى مستوى الخلافة الراشدة ، المتصلة بالملأ الأعلى . ويومئذ لن يكون مايبذله المؤمن المتقى من عرض هذه الحياة الدنيا ضائعا ولا مقطوعا ؛ فمنه ينشأ الأجر الأوفى ، فى الدار الأبقى . . ومع هذا فإن الله لايسأل الناس أن يبذلوا أموالهم كلها ، ولايشق عليهم فى فرائضه وتكاليفه ، لعلمه سبحانه بشح نفوسهم فطرة وخلقة . وهو لايكلف نفسا إلا وسعها . وهو أرحم بهم من أن يكلفهم بذلها كلها ، فتضيق صدورهم وتظهر أضغانهم :

« إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ، ويخرج أضغانكم » . .

وهذا النص يوحى بحكمة اللطيف الخبير ، كما يوحى برحمته ولطفه بالنفوس . ويكشف عن التقدير الدقيق فى تكاليف هذا الدين ، ومراعاته للفطرة ، وتناسقه مع بشرية البشر بكل استعداداتها ، وطاقاتها ، وأحوالها . فهو عقيدة ربانية لإنشاء نظام ربانى إنسانى . نظام ربانى من ناحية أن الله هو الذى يقيم منهجه وقواعده ؛ وإنسانى من ناحية أن الله يراعى فى تكاليفه طاقة الإنسان وحاجته . والله هو الذى خلق ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

وفى النهاية يواجههم بواقع حالهم تجاه دعوتهم إلى البذل فى سبيل الله ؛ ويعالج شح النفوس بالمال بالوسائل القرآنية ، كما عالج شحها فى ذات النفس عند الجهاد :

« هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله . فمنكم من يبخل . ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . والله الغنى وأنتم الفقراء . وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » . .

والآية ترسم صورة وصفية لواقع الجماعة المسلمة يومذاك . ولواقع الناس تجاه الدعوة إلى البذل فى كل بيئة . فهى تقرر أن منهم من يبخل . ومعنى هذا أن هنالك من لايبخلون بشىء . وقد كان هذا واقعا ، سجلته الروايات الكثيرة الصادقة ، وسجله القرآن فى مواضع أخرى . وقد حقق الإسلام فى هذا المجال مثلا تحسب من خوارق الأمثال فى البذل والتضحية عن رضى

وعن فرح بالبذل والعطاء . ولكن هذا لم يمنع أن يكون هنالك من يبخل بالمال. ولعل الجود. بالنفس أرخص عند بعضهم من الجود بالمال !

والقرآن يعالج هذا الشح فى هذه الآية :

« ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه » ..

فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور ، يجدونه يوم يحتاجون إلى الرصيد . يوم يحشرون مجردين من كل مايملكون. فلايجدون إلا ذلك الرصيد المذخور. فإذا بخلوا بالبذل ، فإنما يبخلون على أنفسهم ؛ وإنما يقللون من رصيدهم ؛ وإنما يستخسرون المال فى ذواتهم وأشخاصهم ؛ وإنما يحرمونها بأيديهم !

أجل . فالله لا يطلب إليهم البذل ، إلا وهو يريد لهم الخير، ويريد لهم الوفر ، ويريد لهم الكنز والذخر . وما يناله شىء مما يبذلون ، وما هو فى حاجة إلى ما ينفقون :

« والله الغنى وأنتم الفقراء » ..

فهو الذى أعطاكم أموالكم ، وهو الذى يدخر لكم عنده ماتنفقونه منها . وهو الغنى عما أعطاكم فى الدنيا ، الغنى عن أرصدتكم المذخورة فى الآخرة . وأنتم الفقراء فى الدارين وفى الحالين . أنتم الفقراء إلى رزقه فى الدنيا ، فمالكم من قدرة على شىء من الرزق إلا أن يهبكم إياه . وأنتم الفقراء إلى أجره فى الآخرة ، فهو الذى يتفضل به عليكم ، وما أنتم بموفين شيئا مما عليكم ، فضلا على أن يفضل لكم شىء فى الآخرة ، إلا أن يتفضل عليكم .

ففيم البخل إذن وفيم الشح ؟ و كل مافى أيديكم ، وكل ماينالكم من أجر على ماتنفقون. هو من عند الله ، ومن فضل الله ؟

ثم الكلمة الأخيرة وهى فصل الخطاب . .

إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومنّ وعطاء . فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلا لهذا الفضل . وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة . وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهون عليكم كل ماعداه . . فإن الله يسترد ماوهب ، ويختار غيركم لهذه المنة ممن يقدر فضل الله :

« وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لايكونوا أمثالكم » ..

وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان ، وأحس بكرامته على الله، وبمقامه فى هذا الكون وهو يحمل هذا السر الإلهى العظيم ، ويمشى فى الأرض بسلطان الله فى قلبه، ونور الله فى كيانه؛ ويذهب ويجىء وعليه شارة مولاه . .

وما يطيق الحياة ومايطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه ، ويطرد من الكنف ، وتوصد دونه الأبواب . لابل إن الحياة لتغدو جحيما لايطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب .

إن الإيمان هبة ضخمة ، لايعدلها فى هذا الوجود شىء ؛ والحياة رخيصة رخيصة، والمال زهيد زهيد ، حين يوضع الإيمان فى كفة ، ويوضع فى الكفة الأخرى كل ماعداه .

ومن ثم كان هذا الإنذار أهول مايواجهه المؤمن ، وهو يتلقاه من الله ..

سورة الفتح مدنية
وآياتها ٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً * وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ، الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً * وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً .

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً .

« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ : شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ : فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ

بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ؟ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ، وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ، وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً .

« وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً * وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً .

« سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ - إِذَا ٱنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا - ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهِ ، قُلْ : لَنْ تَتَّبِعُونَا . كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِنْ قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ : بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ : سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ، فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْراً حَسَناً ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا ، كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ، يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

« لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَى حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ، وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً » . .

هذه السورة مدنية ، نزلت فى السنة السادسة من الهجرة ، عقب صلح الحديبية ؛ وهى تتناول هذا الحادث الخطير وملابساته ؛ وتصور حال الجماعة المسلمة وما حولها فى إبانه ؛ فبين وقت نزولها ووقت نزول سورة « محمد » التى تسبقها فى ترتيب المصحف ، نحو من ثلاث سنوات ، تمت فيها تغيرات هامة وخطيرة فى أحوال الجماعة المسلمة فى المدينة . تغيرات فى موقفها وموقف المناوئين لها ، وتغيرات أهم فى حالتها النفسية وصفتها الإيمانية ، واستوائها على النهج الإيمانى فى إدراك ونضج عميق .

وقبل أن نتحدث عن السورة وجوها ودلالتها يحسن أن نمر بصورة الحادث الذى نزلت بصدده ، لنعيش فى الجو الذى كان المسلمون يعيشون فيه ، وهم يتلقون هذا التنزيل الكريم :

لقد أُرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى منامه أنه يدخل الكعبة هو والمسلمون محلقين رؤوسهم ومقصرين . وكان المشركون قد منعوهم منذ الهجرة من دخول مكة ، حتى فى الأشهر الحرم التى يعظمها العرب كلهم فى الجاهلية ، ويضعون السلاح فيها ؛ ويستعظمون القتال فى أيامها ، والصد عن المسجد الحرام . حتى أصحاب الثارات كانوا يتجمعون فى ظلال هذه الحرمة ، ويلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يرفع فى وجهه سيفا ، ولا يصده عن البيت المحرم . ولكنهم خالفوا عن تقاليدهم الراسخة فى هذا الشأن ؛ وصدوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين معه طوال السنوات الست التى تلت الهجرة . حتى كان العام السادس الذى أُرى فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الرؤيا . وحدث بها أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ فاستبشروا بها وفرحوا .

ورواية ابن هشام لوقائع الحديبية هى أوفى مصدر نستند إليه فى تصورها . وهى فى جملتها تتفق مع رواية البخارى ورواية الإمام أحمد ومع تلخيص ابن حزم فى جوامع السيرة وغيرهم.

قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة شهر رمضان وشوالا (بعد غزوة بنى المصطلق وماجاء فى أعقابها من حديث الإفك) وخرج فى ذى القعدة معتمرا لا يريد حربا . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه ؛ وهو يخشى من قريش الذى صنعوا أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ؛ وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له .

قال : وكان جابر ابن عبد الله ـ فيما بلغنى ـ يقول : كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مئة.

قال الزهرى : وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى إذا كان بعسفان [1] لقيه بشر بن سفيان الكعبى . فقال : يارسول الله ! هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل [2] ، قد لبسوا جلود النمور ؛ وقد نزلوا بذى طوى ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا . وهذا خالد ابن الوليد فى خيلهم ، قد قدموها إلى كراع الغميم [3] . قال : فقال

(١) عسفان : موضع بين مكة والمدينة على مرحلتين من مكة .
(٢) العوذ التى لم تلد ، والمطافيل ذوات الأطفال . وهذا يقتضى أن يكون النص العوذ والمطافيل
(٣) كراع الغميم دار أمام عسفان بثمانية أميال .

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ياويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فوالله لاأزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة (١) . ثم قال : « من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ » .

قال ابن اسحاق : فحدثني عبد الله ابن أبي بكر ، أن رجلا من أسلم قال : أنا يارسول الله. قال : فسلك بهم طريقا وعرا أجرل (٢) بين شعاب . فلما خرجوا منه — وقد شق ذلك على المسلمين — وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي ، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — للناس : « قولوا نستغفر الله ونتوب إليه » . فقالوا ذلك . فقال: « والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل ، فلم يقولوها » (٣) .

قال ابن شهاب الزهري : فأمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الناس فقال : « اسلكوا ذات اليمين » بين ظهري الحمض (٤) في طريق على ثنية المرار ، مهبط الحديبية (٥) من أسفل مكة ؛ قال : فسلك الجيش ذلك الطريق . فلما رأت خيل قريش قترة (٦) الجيش ، قد خالفوا عن طريقهم ، رجعوا راكضين إلى قريش . وخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته . فقال الناس : خلأت الناقة (٧) . فقال : « ماخلأت . وماهو لها بخلق. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لاتدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها — (وفي رواية البخاري : والذي نفسي بيده لايسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها) . ثم قال للناس : « انزلوا » قيل له: يارسول الله ، مابالوادي ماء ينزل عليه . فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه . فنزل في قليب (٨) من تلك القلب ، فغرزه في جوفه ، فجاش بالرواء . . .

---

(١) السالفة صفحة العنق ، يعني : أو أقتل . فإنها لاتنفرد إلا بالقتل .

(٢) أجرل : كثير الحجارة .

(٣) يشير — صلى الله عليه وسلم — إلى ماجاء في القرآن الكريم : « وادخلوا الباب سجدا وقولوا : حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم ..

(٤) الحمض : ماملح من النبات وهو هنا اسم موضع .

(٥) قرية بينها وبين مكة مرحلة واحدة .

(٦) قترة الجيش : غباره .

(٧) خلأت : كما تقول للدابة حرنت . ولايقال خلأت إلا للناقة .

(٨) القليب : منخفض يحفظ بعض ماء المطر حين ينزل .

فلما اطمأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتاه بديل ابن ورقاء الخزاعى ، فى رجال من خزاعة ، فكلموه ، وسألوه ماالذى جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا ، وإنما جاء زائرا للبيت، ومعظما لحرمته. ثم قال لهم نحوا مما قال لبشر ابن سفيان؛فرجعوا إلى قريش فقالوا: يامعشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد . إن محمدا لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت . فاتهموهم وجبهوهم ، وقالوا : وإن كان جاء ولايريد قتالا . فوالله لايدخلها علينا عنوة أبدا ، ولاتحدث بذلك عنا العرب .

وكانت خزاعة عيبة نصح [١]رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلمها ومشركها، لايخفون عنه شيئا كان بمكة . ثم بعثوا إليه مكرز ابن حفص ابن الأخيف أخا بنى عامر ابن لؤى . فلما رآه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقبلا قال : « هذا رجل غادر » .فلما انتهى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلمه ، قال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحوا مما قال لبديل وأصحابه ؛ فرجع إلى قريش ، فأخبرهم بما قال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم بعثوا إليه الحليس ابن علقمة أو ابن زبان . وكان يومئذ سيد الأحابيش [٢] ، وهو أحد بنى الحارث ابن عبد مناة ابن كنانة . فلما رآه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن هذا من قوم يتألهون ـ يعنى يتعبدون ـ فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه » .فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده ، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش ، ولم يصل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إعظاما لما رأى . فقال لهم ذلك . فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابى لاعلم لك !

قال ابن إسحاق : فحدثنى عبد الله ابن أبى بكر أن الحليس غضب عند ذلك . وقال:يامعشر قريش ، والله ماعلى هذا حالفناكم ، ولاعلى هذا عاقدناكم . أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ؟ والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ماجاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . قال : فقالوا له : مه . كف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به .

قال الزهرى : ثم بعثوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عروة ابن مسعود الثقفى فقال : يامعشر قريش ، إنى قد رأيت مايلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم ،من التعنيف

---

(١) اى وعاء نصح . والمقصود أنهم ناصحون مخلصون . وقد دخلوا فى عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما سيجيء .

(٢) الأحابيش جمع حبشى بضم الحاء وسكون الباء نسبة إلى مكان فى البادية .

وسوء اللفظ . وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد (وكان نسبه لأمه في بنى عبد شمس) وقد سمعت بالذى نابكم ، فجمعت من أطاعنى من قومى ، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى . قالوا : صدقت ، ماأنت عندنا بمتهم . فخرج حتى جاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجلس بين يديه . ثم قال : يامحمد . أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم [١] ؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لاتدخلها عليهم عنوة أبدا . وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا .قال : وأبو بكر خلف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قاعد . فزجره[٢] وقال : أنحن نكشف عنه؟قال :من هذا يامحمد؟ قال : « هذا ابن أبى قحافة» . قال . أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها . ولكن هذه بها .قال : ثم جعل يتناول لحية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يكلمه . قال : والمغيرة ابن شعبة واقف على رأس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى الحديد . قال : فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبل أن لاتصل إليك ! قال : فيقول عروة : ويحك ! ماأفظك وأغلظك ! قال : فتبسم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال له عروة : من هذا يامحمد ؟ قال : « هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة » . قال : أىْ غُدَر [٣] . وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس ؟

قال ابن هشام : أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك من ثقيف ، فتهايج الحيان من ثقيف : بنو مالك رهط المقتولين . والأحلاف رهط المغيرة . فودى عروة للمقتولين ثلاث عشرة دية . وأصلح ذلك الأمر .

قال ابن إسحاق : قال الزهرى : فكلمه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بنحو مما كلم أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا . فقام من عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد رأى ما يصنع به أصحابه : لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يامعشر قريش ، إنى جئت كسرى

(١) بيضة الرجل : أهله وقبيلته . وتفضها أى تكسرها . وهى كناية عن تحطيمهم .

(٢) فى الرواية جملة نستبعد صدورها على لسان أبى بكر رضى الله عنه فى أدبه وعفة لسانه .

(٣) أى : ياغادر

فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ؛ وإنى والله مارأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ؛ ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا . فروا رأيكم .

قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض أهل العلم ، أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دعا خراش ابن أمية الخزاعى فبعثه إلى قريش بمكة ، وحمله على بعير له يقال له : الثعلب . ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له . فعقروا به جمل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق: وحدثنى بعض من لا أتهم ، عن عكرمة مولى ابن عباس (عن ابن عباس) أن قريشا كانوا بعثوا أربعين رجلا منهم ، أو خمسين رجلا ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا . فأخذوا أخذا ، فأتى بهم رسول الله —صلى الله عليه وسلم — فعفا عنهم ، وخلى سبيلهم . وقد كانوا رموا فى عسكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالحجارة والنبل .

ثم دعا عمر ابن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ماجاء له . فقال: يارسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى ابن كعب أحد يمنعنى . وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها . ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى . عثمان ابن عفان . فدعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عثمان ابن عفان ، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته .

قال ابن إسحاق : فخرج عثمان إلى مكة ، فلقيه أبان ابن سعيد ابن العاص ، حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ؛ فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما أرسله به ؛ فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله —صلى الله عليه وسلم —إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والمسلمين أن عثمان ابن عفان قد قتل .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عبد الله ابن أبى بكر ، أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال — حين بلغه أن عثمان قد قتل — : « لا نبرح حتى نناجز القوم » . فدعا رسول الله — صلى

الله عليه وسلم ـ الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة. فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الموت . وكان جابر ابن عبد الله يقول : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على ألا نفر. فبايع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس ، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد ابن قيس أخو بنى سلمة . فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته قد ضبأ إليها [1] ، يستتر بها من الناس . ثم أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل .

قال ابن هشام : وحدثنى من أثق به ، عمن حدثه بإسناد له ، عن ابن أبى مليكة ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بايع لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

قال ابن إسحاق : قال الزهرى : ثم بعثت قريش سهيل ابن عمرو أخا بنى عامر بن لؤى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا له : إيت محمدا فصالحه ، ولايكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لاتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا . فأتاه سهيل ابن عمرو ، فلما رآه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقبلا قال : ـ « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ». فلما انتهى سهيل ابن عمرو إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكلم فأطال الكلام . وتراجعا . ثم جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر ، ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر ابن الخطاب فأتى أبابكر ، فقال : ياأبابكر، أليس برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين؟ قال : بلى ! قال :أوليسوا بالمشركين؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال أبو بكر : ياعمر ، الزم غرزه [1] ، فإنى أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله ، ألست برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى ! قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى ». قال : فكان عمر يقول: مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ ، مخافة كلامى الذى تكلمت به ، حين رجوت أن يكون خيرا !

---

(١) ضبأ إليها : لصق بها واستتر .

(١) الزم غرزه : أى الزم طريقه . وأصله وضع القدم فى الركاب موضع قدمه .

قال : ثم دعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على ابن أبي طالب — رضوان الله عليه — فقال : « اكتب باسم الله الرحمان الرحيم » قال : فقال سهيل : لاأعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « اكتب باسمك اللهم » فكتبها . ثم قال : « اكتب : هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سهيل ابن عمرو » . قال : فقال سهيل : لوشهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ؛ ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . قال : فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « اكتب : هذا ماصالح عليه محمد ابن عبد الله . سهيل ابن عمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليه ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة [1] . وأنه لاإسلال ولاإغلال [2] ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه — فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم — وأنك ترجع عنا عامك هذا فلاتدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثا ، معك سلاح الراكب : السيوف فى القرُب ، لاتدخلها بغيرها .

فبينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يكتب الكتاب هو وسهيل ابن عمرو ، إذ جاء أبو جندل ابن سهيل ابن عمرو يرسف فى الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد كان أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح ، لرؤيا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون . فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ، ثم قال : يامحمد ، قد لجت [3] القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : « صدقت » فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟ فزاد الناس إلى ما بهم . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا

(١) أى تكف عنا ونكف عنك . والأصل أن بيننا وعاء مقفلا فاستعاره لهذا المعنى .
(٢) الإسلال : السرقة الخفية ، والإغلال : الخيانة .
(٣) لجت القضية : انعقدت وانتهى أمرها .

وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله . وإنا لا نغدر بهم » . قال : فوثب عمر ابن الخطاب مع أبي جندل يمشى إلى جنبه ، ويقول: اصبر ياأبا جندل، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب . قال : ويدنى قائم السيف منه . قال : يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه . قال : فضن الرجل بأبيه ، ونفذت القضية (١)

فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين : أبو بكر الصديق ، وعمر ابن الخطاب ، وعبد الرحمان ابن عوف، وعبد الله ابن سهيل ابن عمرو، وسعد ابن أبي وقاص ، ومحمود ابن مسلمة ، ومكرز ابن حفص (وهو يومئذ مشرك) وعلى ابن أبي طالب ، وكتب ، وكان هو كاتب الصحيفة .

قال الزهرى : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأصحابه: « قوموا فانحروا ثم احلقوا » قال : فوالله ما قام منهم رجل ، حتى قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد دخل ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ على أم سلمة ــ رضى الله عنها ــ فذكر لها ما لقى من الناس . قالت (أم سلمة) ــ رضى الله عنها ــ : يانبى الله ، أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك ، وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، نحر بيده ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عبد الله ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس . قال : حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « يرحم الله المحلقين » . قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : « يرحم الله المحلقين » . قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : « يرحم الله المحلقين » . قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : « والمقصرين » . فقالوا : يارسول الله ، فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال : « لم يشكوا » . .

قال الزهرى فى حديثه : ثم انصرف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من وجهه ذلك قافلا . حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح . .

---

(١) روى عن أبي جندل أن الذى منعه حرصه على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا الضن بأبيه !

وروى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن مجمع ابن حارثة الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن . قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض : ماللناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ فخرجنا مع الناس نوجف. فإذا رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ..قال : فقال رجل من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ : أى رسول الله أوفتح هو ؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إى والذى نفس محمد بيده إنه لفتح » ..

وروى الإمام أحمد ـ باسناده ـ عن عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سفر . قال : فسألته عن شىء ثلاث مرات فلم يرد على . قال : فقلت ثكلتك أمك ياابن الخطاب . ألححت . كررت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاث مرات ، فلم يرد عليك ! قال :فركبت راحلتى ،فحركت بعيرى ، فتقدمت،مخافة أن يكون نزل فىّ شىء . قال : فإذا أنا بمناد ياعمر . قال :فرجعت وأنا أظن أنه نزل فىّ شىء .قال :فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « نزل علىّ البارحة سورة هى أحب إلىّ من الدنيا ومافيها : إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر » .. ورواه البخارى والترمذى والنسائى من طرق عن مالك رحمه الله ..

* * *

هذا هو الجو الذى نزلت فيه السورة . الجو الذى اطمأنت فيه نفس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى إلهام ربه ، فتجرد من كل إرادة إلا ما يوحيه هذا الإلهام العلوى الصادق ؛ ومضى يستلهم هذا الإيحاء فى كل خطوة وفى كل حركة ، لا يستفزه عنه مستفز ، سواء من المشركين أو من أصحابه الذين لم تطمئن نفوسهم فى أول الأمر لقبول استفزاز المشركين وحميتهم الجاهلية . ثم أنزل الله السكينة فى قلوبهم ، فقاءوا إلى الرضى واليقين والقبول الخالص العميق؛ كإخوانهم الذين كانوا على هذه الحال منذ أول الأمر ، شأن الصديق أبى بكر الذى لم تفقد روحه لحظة واحدة صلتها الداخلية المباشرة بروح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن ثم بقيت على اطمئنانها دائما ، ولم تفارقها الطمأنينة أبدا .

ومن ثم جاء افتتاح السورة بشرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فرح لها قلبه الكبير

فرحا عميقا : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا » .

كما جاء فى الافتتاح،الامتنان على المؤمنين بالسكينة، والاعتراف لهم بالإيمان السابق وتبشيرهم بالمغفرة والثواب ، وعون السماء بجنود الله : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا — مع إيمانهم — ولله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عليما حكيما ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » . . ذلك مع ما أعده لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من غضب وعذاب : « ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم، وأعد لهم جهنم ، وساءت مصيرا » . .

ثم التنويه ببيعة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واعتبارها بيعة لله ؛ وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق ، بهذا الرباط المتصل مباشرة بالله الحى الباقى الذى لا يموت : « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » .

وبمناسبة البيعة والنكث يلتفت — قبل إكمال الحديث عن المؤمنين ومواقفهم فى الحديبية — إلى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج ، فيفضح معاذيرهم ، ويكشف ما جال فى خواطرهم من سوء الظن بالله، ومن توقع السوء للرسول — صلى الله عليه وسلم — ومن معه. ويوجه الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى ما ينبغى أن يكون موقفه منهم فى المستقبل . وذلك فى أسلوب يوحى بقوة المسلمين وضعف المخلفين ، كما يوحى بأن هنالك غنائم وفتوحا قريبة يسيل لها لعاب المخلفين المتباطئين :

« سيقول لك المخلفون من الأعراب : شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ، قل : فمن يملك لكم من الله شيئا ، إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ؟ بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ، وزين ذلك فى قلوبكم ، وظننتم ظن السوء، وكنتم قوما بورا . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا . ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وكان الله

غفورا رحيما . سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل : لن تتبعونا . كذلكم قال الله من قبل . فسيقولون : بل تحسدوننا. بل كانوا لايفقهون إلا قليلا . قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أويسلمون ،فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ، وإن تتولوا كماتوليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما » .

وفى هذا الصدد يبين المعذورين إذا تخلفوا ، والمعفين من الجهاد لعجزهم عنه ، وهو العذر الوحيد : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذابا أليما » . .

وبعد هذه اللفتة يعود سياق السورة للحديث عن المؤمنين ومواقفهم وخوالج نفوسهم ؛ حديثا كله رضى وشفافية ووضاءة وتكريم ؛ وكله بشريات لهذه النفوس الخالصة القوية ، البائعة المتجردة . حديثا يتجلى فيه الله جل جلاله على هذه المجموعة المختارة من البشر . يتجلى عليهم برضوانه وبشرياته وامتنانه وتثبيته . ويبلغهم بأشخاصهم وأعيانهم أنه عنهم راض ، وأنه كان حاضرهم وهم يبايعون فى مكان بعينه : « تحت الشجرة » وأنه اطلع على مافى نفوسهم . وأنه رضيهم ورضى عنهم ، وأنه كتب لهم النصر فى المستقبل والغنائم والفتوح ، وربط هذا كله بناموس الوجود وسنة الوجود. وهو أمر يقف له الوجود كله يشهد ويرقب ويتأثر ويسجل فى أطوائه ذلك الحادث العظيم الفريد : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم مافى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ،وأثابهم فتحا قريبا . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما . وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه ، وكف أيدى الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما ، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديرا .ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لايجدون وليا ولانصيرا. سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » . .

ويمتن عليهم بأخذ عدوهم النفر الذين أرادوا بهم الأذى ؛ ويندد بأعدائهم الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، وصدوا الهدى أن يبلغ محله، ويتلطف معهم فيكشف لهم عن حكمته فى كفهم هذا العام عنهم ؛ وفضله فى ترضيتهم بما كان ، وإنزال سكينته فى قلوبهم ، لأمر يراه، وهو أعظم مما يرون ؛ وهو فتح مكة ثم هيمنة هذا الدين على الدين كله بأمر الله وتدبيره : « وهو

الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيرا . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله . ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ،أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم، ليدخل الله فى رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما . إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ؛ وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شىء عليما . لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . فعلم مالم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » . .

وتختم السورة بالصفة الكريمة الوضيئة التى تميز هذه المجموعة المختارة من البشر، وتفردها بسمتها الخاصة، وتنوه بها فى الكتب السابقة : التوراة والإنجيل . وبوعد الله الكريم بالمغفرة والأجر العظيم : « محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة . ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ، ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » . .

وهكذا تصبح نصوص السورة مفهومة واضحة، تعيش فى جوها الذى نزلت فيه، وتصوره أقوى تصوير ، بأسلوب القرآن الخاص الذى لا يفصل الحوادث بترتيبها وتسلسلها ؛ ولكنه يأخذ منها لمحات توجيهية وتربوية ؛ ويربط الحادثة المفردة بالقاعدة الشاملة . والموقف الخاص بالأصل الكونى العام . ويخاطب النفوس والقلوب بطريقته الفذة ومنهجه الفريد .

* * *

ومن سياق السورة وجوها، وبالموازنة بينها وبين إيحاءات سورة محمد التى قبلها فى ترتيب المصحف ؛ يتبين مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة فى موقفها كله من تغيرات عميقة ، فى مدى السنوات الثلاث ، التى نرجح أنها تفرق بين السورتين فى زمن النزول . ويتبين مدى فعل القرآن الكريم ، وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة التى سعدت بالنشوء والنمو فى ظلال القرآن ، وفى رعاية النبوة . فكانت ما كانت فى تاريخ البشرية الطويل .

واضح فى جو سورة الفتح وإيحاءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة ، وتجانست مستوياتها الإيمانية ، واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين ؛ ولم تعد محتاجة إلى حوافز عنيفة الوقع كى تنهض بهذه التكاليف فى النفس والمال؛ بل عادت محتاجة إلى من يخفض حميتها، وينهنه حدتها ، ويأخذ بزمامها لتستسلم للهدوء والمهادنة بعض الوقت ، وفق حكمة القيادة العليا للدعوة .

لم تعد الجماعة المسلمة تواجه بمثل قوله تعالى : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون. والله معكم ولن يتركم أعمالكم » . . ولا بمثل قوله تعالى : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » .

ولم تعد فى حاجة إلى حوافز قوية للجهاد بالحديث عن الشهداء وما أعد الله لهم عنده من الكرامة؛ ولا بيان حكمة الابتلاء بالقتال ومشقاته كما فى سورة محمد، إذ يقول الله تعالى: «ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .

إنما صار الحديث عن السكينة التى أنزلها الله فى قلوب المؤمنين، أو أنزلها عليهم . والمقصود بها تهدئة فورتهم ، وتخفيض حميتهم، واطمئنان قلوبهم لحكم الله وحكمة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المهادنة والملاينة ، وعن رضى الله على المبايعين تحت الشجرة. وكانت هذه الصورة الوضيئة فى نهاية السورة للرسول ومن معه .

أما الحديث عن الوفاء بالبيعة والنكث فيها فى قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » . . فالإيحاء فيه أكثر إلى تكريم المبايعين وتعظيم شأن البيعة. والإشارة إلى النكث جاءت بمناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين ، وكذلك الإشارة إلى المنافقين والمنافقات فهى إشارة عابرة ، تدل على ضعف موقف هذه الطائفة ، وعلى خلوص الجماعة المسلمة بالمدينة ونضوجها وتجانسها. وهى على كل حال إشارة عابرة لا تشغل من السورة شيئا مما شغله الحديث عن المنافقين فى سورة محمد ، حيث كان للمنافقين شأنهم هم وحلفاؤهم اليهود . وهذا تطور آخر فى موقف الجماعة المسلمة من ناحية موقفها الخارجى يساير ذلك التطور الذى تم فى نفوسها من الداخل .

وواضح كذلك قوة المسلمين بالقياس إلى قوة المشركين فى جو السورة كلها وفى آيات بنصها ؛ والإشارات إلى الفتوح المقبلة ، وإلى رغبة المخلفين فى الغنائم السهلة واعتذارهم ، وإلى ظهور هذا الدين على الدين كله . . كلها تشى بما بلغت إليه قوة المسلمين فى هذه الفترة بين نزول السورتين .

ففى حقيقة النفوس ، وفى حال الجماعة ، وفى الظروف المحيطة بها ، حدث تطور واضح ، يدركه من يتلمس خط السيرة فى النصوص القرآنية . ولهذا التطور قيمته كما أن له دلالته على أثر المنهج القرآنى والتربية المحمدية ، لهذه الجماعة السعيدة الفريدة فى التاريخ . ثم إن لهذا التطور إيحاءه للقائمين على الجماعات البشرية . فلا تضيق صدورهم بالنقص فيها والضعف ورواسب الماضى ومخلفاته ، وآثار البيئة والوسط ، وجواذب الأرض ، وثقلة اللحم والدم .. وكلها تبدو فى أول العهد قوية عميقة عنيفة. ولكنها مع المثابرة والحكمة والصبر على العلاج، تأخذ فى التحسن والتطور . والتجارب والابتلاءات تعين على التحسن والتطور، حين تتخذ فرصة للتربية والتوجيه . وشيئا فشيئا تخف ثقلة الطين ، وتشف كثافة اللحم والدم ، وتتوارى آثار البيئة ، وتصفو رواسب الماضى ، وتستشرف القلوب آفاقا أعلى فأعلى ، حتى ترى النور هناك على الأفق الوضىء البعيد . ولنا فى رسول الله أسوة حسنة ، ولنا فى المنهج القرآنى صراط مستقيم .

***

« إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا » . .

تفتتح السورة بهذا الفيض الإلهى على رسوله — صلى الله عليه وسلم — : فتح مبين . ومغفرة شاملة . ونعمة تامة . وهداية ثابتة. ونصر عزيز .. إنها جزاء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه . والاستسلام الراضى لإيحائه وإشارته. والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية. والثقة العميقة بالرعاية الحانية .. يرى الرؤيا فيتحرك بوحيها . وتبرك الناقة، ويتصايح الناس : خلأت القصواء . فيقول. « ماخلأت . وماهو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لاتدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .. ويسأله عمر ابن الخطاب فى حمية : فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ فيجيبه : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى » .. ذلك وحين يشاع أن عثمان قتل يقول — صلى الله عليه وسلم — : « لانبرح حتى نناجز القوم » .. ويدعو الناس إلى البيعة ، فتكون بيعة الرضوان التى فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا.

وكان هذا هو الفتح ؛ إلى جانب الفتح الآخر الذى تمثل فى صلح الحديبية ، وما أعقبه من فتوح شتى فى صور متعددة :

كان فتحا فى الدعوة . يقول الزهرى: فما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا ، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، ولم يكلم أحد فى الإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه . ولقد دخل فى تينك السنتين (بين صلح الحديبية وفتح مكة) مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهرى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خرج إلى الحديبية فى ألف وأربع مئة فى قول جابر بن عبد الله. ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف .

وكان ممن أسلم خالد ابن الوليد وعمرو ابن العاص .

وكان فتحا فى الأرض . فقد أمن المسلمون شر قريش ، فاتجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى تخليص الجزيرة من بقايا الخطر اليهودى — بعد التخلص من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة — وكان هذا الخطر يتمثل فى حصون خيبر القوية التى تهدد طريق الشام . وقد فتحها الله على المسلمين ، وغنموا منها غنائم ضخمة، جعلها الرسول — صلى الله عليه وسلم — فيمن حضر الحديبية دون سواهم .

وكان فتحا فى الموقف بين المسلمين فى المدينة وقريش فى مكة وسائر المشركين حولها . يقول الأستاذ محمد عزة دروزة بحق فى كتابة : « سيرة الرسول . صور مقتبسة من القرآن الكريم » :

« ولا ريب فى أن هذا الصلح الذى سماه القرآن بالفتح المظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق . بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى فى السيرة النبوية ، وفى تاريخ الإسلام وقوته وتوطده ، أو بالأحرى من أعظمها . فقد اعترفت قريش بالنبى والإسلام وقوتهما وكيانهما ، واعتبرت النبى والمسلمين أندادا لها ، بل دفعتهم عنها بالتى هى أحسن ، فى حين أنها غزت المدينة فى سنتين مرتين ، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم ، وبعثت هذه الغزوة فى نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقلتهم إزاء الغزاة . ولهذا شأن عظيم فى نفوس العرب،

الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقدوة ، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثر. وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون . بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هـذا الفتح وبعد مداه .

« ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي — صلى الله عليه وسلم — فيما فعل ، وأيده فيه القرآن ، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه . إذ قووا في عيون القبائل ، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار ، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوتا وشأنهم ضآلة ، وإذ صار العرب يفدون على النبي — صلى الله عليه وسلم — من أنحاء قاصية ، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المتناثرة على طريق الشام ، وإذ صار يستطيع أن يبعث بسراياه إلى أنحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء ، وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها ، وكان في ذلك النهاية الحاسمة ، إذ جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا [1] » . .

ونحن نعود فنؤكد أنه كان هناك — إلى جانب هذا كله — فتح آخر . فتح في النفوس والقلوب ، تصوره بيعة الرضوان ، التي رضي عنها الله وعن أصحابها ذلك الرضى الذي وصفه القرآن . ورسم لهم على ضوئه تلك الصورة الوضيئة الكريمة في نهاية السورة : « محمد رسول الله . والذين معه ... الخ » . فهذا فتح في تاريخ الدعوات له حسابه ، وله دلالته ، وله آثاره بعد ذلك في التاريخ .

ولقد فرح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بهذه السورة . فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين معه . فرح بالفتح المبين . وفرح بالمغفرة الشاملة، وفرح بالنعمة التامة، وفرح بالهداية إلى صراط الله المستقيم . وفرح بالنصر العزيز الكريم . وفرح برضى الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل . وقال — في رواية — : « نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا ومافيها » . . وفي رواية : « لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس » .. وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته . فاضت بالشكر في صورة صلاة طويلة مديدة ، تقول عنها عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه ، فقالت له عائشة — رضي الله عنها — يارسول الله

(١) ص ٢٩٢ — ٢٩٣ من الجزء الثاني .

أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال — صلى الله عليه وسلم — : « ياعائشة ، أفلا أكون عبدا شكورا ؟ » (١) ..

* * *

ذلك الافتتاح كان نصيب النبي — صلى الله عليه وسلم — خاصة ؛ ثم مضى السياق يصف نعمة الله على المؤمنين بهذا الفتح ، ومس يده لقلوبهم بالسكينة ، وما ادخره لهم فى الآخرة من غفران وفوز ونعيم :

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، ولله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عليما حكيما . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » ..

والسكينة لفظ معبر مصور ذو ظلال ؛ والسكينة حين ينزلها الله فى قلب ، تكون طمأنينة وراحة ، ويقينا وثقة ، ووقارا وثباتا ، واستسلاما ورضى .

ولقد كانت قلوب المؤمنين فى هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى ، وتفور بانفعالات متنوعة . كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بدخول المسجد الحرام ؛ ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول — صلى الله عليه وسلم — للرجوع عن البيت فى هذا العام ، بعد الإحرام ، وبعد إشعار الهدى وتقليده . وكان هذا أمرا شاقا على نفوسهم مافى ذلك ريب . وقد روى عن عمر — رضى الله عنه — أنه جاء أبا بكر وهو مهتاج ، فكان مما قال له — غير ما أثبتناه فى صلب رواية الحادث — : أوليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال أبوبكر — الموصول القلب بقلب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذى ينبض قلبه على دقات قلب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : بلى . أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قال : لا . قال : فإنك تأتيه وتطوف به . فتركه عمر — رضى الله عنه — إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال له فيما قال : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال — صلى الله عليه وسلم : « بلى . أفأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ » قال : لا . قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « فإنك آتيه ومطوف به » . . فهذه صورة مما كان يجيش فى القلوب .

---

(١) أخرجه مسلم فى الصحيح من رواية عبد الله ابن وهب .

وكان المؤمنون ضيق الصدور بشروط قريش الأخرى ، من رد من يسلم ويأتى محمدا بغير إذن وليه . ومن حميتهم الجاهلية في رد اسم الرحمان الرحيم . وفى رد صفة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد روى أن عليا — رضى الله عنه — أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل ابن عمرو بعد كتابتها ، فمحاها رسول الله بنفسه وهو يقول : « اللهم إنك تعلم أنى رسولك » . .

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة ، يبدو هذا فى بيعتهم الإجماعية ؛ ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع . فلم يكن هينا على نفوسهم أن تنتهى الأمور إلى ما انتهت إليه . يبدو هذا فى تباطئهم فى النحر والحلق ، حتى قالها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثلاثا . وهم من هم طاعة لأمر رسول الله وامتثالا . كالذى حكاه عنهم لقريش عروة ابن مسعود الثقفى . ولم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله يفعل هذا بنفسه ، فهزتهم هذه الحركة العملية مالم يهزهم القول ، وثابوا إلى الطاعة كالذى كان فى دهشة المأخوذ !

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة ، لا ينوون قتالا ، ولم يستعدوا له نفسيا ولا عمليا . ثم فوجئوا بموقف قريش ، وبما شاع من قتلها لعثمان ، وبإرسال النفر الذين رموا فى عسكر المسلمين بالنبل والحجارة . فلما عزم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم . ولكن هذا لاينفى موقف المفاجأة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له . وهو بعض ما كان يجيش فى قلوبهم من انفعالات وتأثرات . وهم ألف وأربعمائة وقريش فى دارها ، ومن خلفهم الأعراب والمشركون . .

وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين » . . ويذوق طعم اللفظ وطعم العبارة ، ويتصور الموقف يومئذ ويعيش فيه مع هذه النصوص ، ويحس برد السكينة وسلامها فى تلك القلوب .

ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ ، أن ما جاش فيها جاشَ عن الإيمان ، والحمية الإيمانية لا لأنفسهم ، ولا لجاهلية فيهم . فقد تفضل عليهم بهذه السكينة : « ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » والطمأنينة درجة بعد الحمية والحماسة ، فيها الثقة التى لا تقلق ، وفيها الرضى المطمئن باليقين .

ومن ثم يلوّح بأن النصر والغلب لم يكن عسيرا ولا بعيدا ، بل كان هينا يسيرا على الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون ، فإن لله جنودا لا تحصى ولا تغلب ، تدرك النصر وتحقق الغلب وقتما يشاء : « ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما » . . فهى حكمته وهو علمه ، تسير الأمور وفقهما كما يريد .

وعن العلم والحكمة : « أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » . ليحقق لهم ماقدره من فوز ونعيم :

« ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » . .

وإذا كان هذا فى حساب الله فوزا عظيما ، فهو فوز عظيم ! فوز عظيم فى حقيقته ، وفوز عظيم فى نفوس من ينالونه من عند الله مقدرا بتقديره ، موزونا بميزانه . . ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم ؛ وكانوا قد تطلعوا بعد ماسمعوا افتتاح السورة ، وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله . تطلعوا إلى نصيبهم هم ، وسألوا عنه ، فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضى والفرح واليقين .

ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدر فى هذا الحادث ؛ وهو مجازاة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، بما يصدر عنهم من عمل وتصرف :

« ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء ، عليهم دائرة السوء . وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما » . .

وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات فى صفة ظن السوء بالله ؛ وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين . وفى أنهم جميعا « عليهم دائرة السوء » فهم محصورون فيها ، وهى تدور عليهم وتقع بهم . وفى غضب الله عليهم ولعنته لهم ، وفيما أعده لهم من سوء المصير . . ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءا ، بل إنها أحط ؛ ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لايقل عن أذى المشركين والمشركات ، وإن اختلف هذا الأذى وذاك فى مظهره ونوعه .

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هى ظن السوء بالله . فالقلب المؤمن حسن الظن بربه ، يتوقع منه الخير دائما . يتوقع منه الخير فى السراء والضراء . ويؤمن بأن الله يريد به الخير فى الحالين . وسر ذلك أن قلبه موصول بالله . وفيض الخير من الله لا ينقطع أبدا . فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة ، وأحسها إحساس مباشرة وتذوق . فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله . ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها ، فيسوء ظنهم بالله ؛ وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور ، ويبنون عليها أحكامهم . ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين ، كلما كانت ظواهر الأمور توحى بهذا ؛ على غير ثقة بقدر الله وقدرته ، وتدبيره الخفى اللطيف .

وقد جمع الله فى الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع ؛ وبين حالهم عنده ، وما أعده لهم فى النهاية . ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته :

« ولله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عزيزا حكيما » . .

فلا يعييه من أمرهم شىء ، ولا يخفى عليه من أمرهم شىء ، وله جنود السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

* * *

ثم عاد بالخطاب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — منوها بوظيفته ، مبينا للغاية منها ، موجها المؤمنين إلى واجبهم مع ربهم بعد تبليغهم رسالته ، مع ردهم فى بيعتهم إلى الله مباشرة ، وعقد العقدة معه جل جلاله ، وذلك حين يبايعون الرسول — صلى الله عليه وسلم — ويتعاقدون معه . وفى ذلك تشريف لبيعة الرسول وتكريم واضح لهذا التعاقد :

« إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتعزروه وتوقروه ، وتسبحوه بكرة وأصيلا . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » . .

فالرسول — صلى الله عليه وسلم — شاهد على هذه البشرية التى أرسل إليها ، يشهد أنه بلغها ما أمر به ، وأنها استقبلته بما استقبلته ، وأنه كان منها المؤمنون ، ومنها الكافرون ، ومنها المنافقون . وكان منها المصلحون ومنها المفسدون . فيؤدى الشهادة كما أدى الرسالة . وهو مبشر بالخير والمغفرة والرضى وحسن الجزاء للمؤمنين الطائعين ، ونذير بسوء المنقلب والغضب واللعنة والعقاب للكافرين والمنافقين والعصاة والمفسدين . .

هذه وظيفة الرسول . ثم يلتفت بالخطاب إلى المؤمنين ، يكشف لهم عن الغاية المرجوة لهم من الرسالة . إنها الإيمان بالله ورسوله ، ثم النهوض بتكاليف الإيمان ، فينصرون الله بنصرة منهجه وشريعته ، ويوقرونه فى نفوسهم بالشعور بجلاله ؛ وينزهونه بالتسبيح والتحميد طرفى النهار فى البكور والأصيل ، وهى كناية عن اليوم كله ، لأن طرفى النهار يضمان ما بينهما من آونة . والغرض هو اتصال القلب بالله فى كل آن . فهذه هى ثمرة الإيمان المرجوة للمؤمنين من إرسال الرسول شاهدا ومبشرا ونذيرا .

وقد جاء ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصلهم بالله ، ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لاتنقطع بغيبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنهم . فهو حين يضع يده فى أيديهم مبايعا ، فإنما يبايع عن الله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . يد الله فوق أيديهم » . . وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والواحد منهم يشعر وهو يضع يده فى يده ، أن يد الله فوق أيديهم . فالله حاضر البيعة . والله صاحبها . والله آخذها . ويده فوق أيدى المتبايعين . . ومن ؟ الله ! ياللهول ! وياللروعة ! وياللجلال !

وإن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة ـ مهما غاب شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالله حاضر لا يغيب . والله آخذ فى هذه البيعة ومعط ، وهو عليها رقيب .

« فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » . .

فهو الخاسر فى كل جانب . هو الخاسر فى الرجوع عن الصفقة الرابحة بينه وبين الله تعالى . وما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله ، والله هو الغنى عن العالمين . وهو الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذى يكرهه ويمقته ، فالله يحب الوفاء ويحب الأوفياء .

« ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » . .

هكذا على إطلاقه : « أجرا عظيما » . . لا يفصله ولا يحدده . فهو الأجر الذى يقول عنه الله إنه عظيم . عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذى لايرتقى إلى تصوره أبناء الأرض القانون المحدودون الفانون !

* * *

وعند ما يصل إلى حقيقة البيعة ، وإلى خاطر النكث وخاطر الوفاء ، يلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب ، الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لسوء ظنهم بالله ، ولتوقعهم الشر والضر للمؤمنين الخارجين ، الذاهبين إلى قريش في عقر دارها ، وهي غزت المدينة قبل ذلك عامين متواليين .. يلتفت إليهم لينبىء الرسول — صلى الله عليه وسلم — عما سيعتذرون به إليه بعد عودته سالما هو ومن معه ، وقد هادنته قريش ولم تقاتله ، وعقدت معه معاهدة يبدو فيها — مهما كانت شروطها — التراجع من قريش ، واعتبار محمد — صلى الله عليه وسلم — ندا لها تهادنه وتتقي خصومته . ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه ، ويفضحهم ويقفهم مكشوفين أمام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأمام المؤمنين . كما ينبئه بما فيه البشرى له وللخارجين معه ؛ وهو أنهم سيخرجون إلى مغانم قريبة ميسورة ، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه الغنائم السهلة. ويلقنه طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم . فلا يقبل منهم الخروج معه في هذا الوجه القريب الميسور الذي سيقتصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية . إنما ينبئهم بأن هنالك وجها آخر فيه مشقة وفيه قتال مع قوم أولي بأس شديد . فإن كانوا حقا يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ ، حيث يقسم الله لهم بما يريد . فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير ، وإن عصوا كما عصوا من قبل كان لهم العذاب الشديد :

« سيقول لك المخلفون من الأعراب : شغلتنا أموالنا وأهلونا ، فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . قل : فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ؟ بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوما بورا . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا . ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وكان الله غفورا رحيما . سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم . يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل : لن تتبعونا . كذلكم قال الله من قبل. فسيقولون : بل تحسدوننا. بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا . قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما » ..

والقرآن لا يكتفى بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها ؛ ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس ، وهواجس القلوب ، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيدا لعلاجها والطب لها . ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة ، وقواعد الشعور والتصور والسلوك .

فالمخلفون من الأعراب ـ وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأشجع وأسلم وغيرهم ممن حول المدينة ـ سيقولون اعتذارا عن تخلفهم : « شغلتنا أموالنا وأهلونا » .. وليس هذا بعذر . فللناس دائما أهل وأموال . ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة ، وعن الوفاء بحقها مانهض أحد قط بها .. وسيقولون « فاستغفر لنا » .. وهم ليسوا صادقين فى طلب الاستغفار كما ينبىء الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم : « يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم » ..

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذى لايدفعه تخلف ، ولايغيره إقدام ؛ وبحقيقة القدرة التى تحيط بالناس وتتصرف فى أقدارهم كما تشاء . وبحقيقة العلم الكامل الذى يصرف الله قدره على وفقه :

« قل : فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ؟ بل كان الله بماتعملون خبيرا » ..

وهو سؤال يوحى بالاستسلام لقدر الله ؛ والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلكؤ . فالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضررا ، ولا يؤخر نفعا . وانتحال المعاذير لايخفى على علم الله . ولا يؤثر فى جزائه وفق علمه المحيط . وهو توجيه تربوى فى وقته وفى جوه وفى مناسبته على طريقة القرآن .

« بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ، وزين ذلك فى قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوما بورا » . .

وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين ، وجها لوجه أمام ماأضمروا من نية ، وما ستروا من تقدير ، وما ظنوا بالله من السوء . وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم ، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة ؛ وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم ! ـ يشيرون إلى أحد والأحزاب ـ ولم يحسبوا حسابا لرعاية الله وحمايته للصادقين المتجردين من عباده . كما أنهم ـ بطبيعة تصورهم للأمور وخلو قلوبهم من حرارة العقيدة ـ لم يقدروا أن الواجب هو الواجب ، بغض النظر عن تكاليفه كائنة ما كانت ؛ وأن طاعة رسول الله

صلى الله عليه وسلم – يجب أن تكون بدون نظر إلى الربح الظاهرى والخسارة الشكلية ، فهى واجب مفروض يؤدى دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه .

لقد ظنوا ظنهم ، وزين هذا الظن فى قلوبهم ، حتى لم يروا غيره ، ولم يفكروا فى سواه . وكان هذا هو ظن السوء بالله ، الناشىء من أن قلوبهم بور. وهو تعبير عجيب موح. فالأرض البور ميتة جرداء . وكذلك قلوبهم . وكذلك هم بكل كيانهم . بور . لاحياة ولا خصب ولا إثمار . وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله ؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله ؟ يكون بورا . ميتا أجرد نهايته إلى البوار والدمار .

وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة . الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله. البور الخالية قلوبهم من الروح والحياة . هكذا يظنون دائما بالجماعة المؤمنة عندمايبدو أن كفة الباطل هى الراجحة ، وأنقوى الأرض الظاهرة فى جانب أهل الشر والضلال ؛ وأن المؤمنين قلة فى العدد، أو قلة فى العدة ، أو قلة فى المكان والجاه والمال .هكذا يظن الأعراب وأشباههم فى كل زمانأن المؤمنين لاينقلبون إلى أهليهم أبدا إذاهم واجهوا الباطلالمنتفش بقوته الظاهرة. ومن ثم يتجنبون المؤمنين حباللسلامة؛ويتوقعون فى كل لحظة أن يستأصلوا وأن تنتهى دعوتهم فيأخذون هم بالأحوط ويبعدون عن طريقهم المحفوف بالمهالك ! ولكن الله يخيب ظن السوء هذا ؛ ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو ، وبتدبيره هو ، وحسبميزان القوى الحقيقية : الميزان الذى يمسكه الله بيده القوية ، فيخفض به قوما ويرفع به آخرين ، منحيثلايعلم الناقمون الظانون بالله ظن السوء فى كل مكان وفى كل حين !

إن الميزان هو ميزان الإيمان . ومن ثم يرد الله أولئك الأعراب إليه ؛ ويقرر القاعدةالعامة للجزاء وفق هذا الميزان ، مع التلويح لهم برحمة الله القريبة والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة ، والتمتع بمغفرة الله ورحمته :

« ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا. ولله ملك السماوات والأرض، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وكان الله غفورا رحيما » . .

لقد كانوا يتذررن بأموالهم وأهليهم . فماذا تنفعهم أموالهم وأهلوهم فى هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله ؟ إنهما كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين . فإن الله الذى يوعدهم هذا الإيعاد ، هو مالك السماوات والأرض وحده . فهو الذى يملك المغفرة لمن يشاء ، وهو الذى يملك العذاب لمن يشاء .

والله يجزى الناس بأعمالهم ولكن مشيئته مطلقة لا ظل عليها من قيد ، وهو يقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر فى القلوب. غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل، فهذا الترتيب اختيار مطلق لهذه المشيئة .

ومغفرة الله ورحمته أقرب . فليغتنمها من يريد ، قبل أن تحق كلمة الله بعذاب من لم يؤمن بالله ورسوله ، بالسعير الحاضرة المعدة للكافرين .

ثم يلوح ببعض ما قدر الله للمؤمنين ، مخالفا لظن المخلفين . بأسلوب يوحى بأنه قريب :

« سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم . يريدون أن يبدلوا كلام الله. قل : لن تتبعونا . كذلكم قال الله من قبل . فسيقولون : بل تحسدوننا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا » . .

أغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر . وقد يكون هذا . ولكن النص يظل له إيحاؤه ولو لم يكن نصا فى خيبر . فهو يوحى بأن المسلمين سيفتح عليهم فتح قريب يسير . وأن هؤلاء المخلفين سيدركون هذا ، فيقولون : « ذرونا نتبعكم » .

ولعل الذى جعل المفسرين يخصصون خيبر ، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية . . إذ كانت فى المحرم من سنة سبع . بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية . وأنها كانت وافرة الغنائم . وكانت حصون خيبر آخر ما بقى لليهود فى الجزيرة من مراكز قوية غنية . وكان قد لجأ إليها بعض بنى النضير وبنى قريظة ممن أجلوا عن الجزيرة من قبل .

وتتواتر أقوال المفسرين أن الله وعد أصحاب البيعة فى الحديبية أن تكون مغانم خيبر لهم لا يشركهم فيها أحد . ولم أجد فى هذا نصا . ولعلهم يأخذون هذا مما وقع فعلا . فقد جعلها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أصحاب الحديبية ، ولم يأخذ معه أحدا غيرهم .

وعلى أية حال فقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة . وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله . وأخبر نبيه — صلى الله عليه وسلم — أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج : « بل تحسدوننا » .. فتمنعوننا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة . ثم قرر أن قولهم هذا ناشىء عن قلة فقههم لحكمة الله وتقديره . فجزاء المتخلفين الطامعين أن يحرموا، وجزاء الطائعين المتجردين أن يعطوا من فضل الله،وأن يختصوا بالمغنم حين

يقدره الله ، جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام ، يوم كانوا لايتوقعون إلا الشدة فى الجهاد .

ثم أمر الله نبيه أن يخبرهم أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء ، يقاتلونهم على الإسلام، فإذا نجحوا فى هذا الابتلاء كان لهم الأجر، وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير :

« قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما » ..

وتختلف الأقوال كذلك فى من هم القوم أولو البأس الشديد . وهل كانوا على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أم على عهود خلفائه . والأقرب أن يكون ذلك فى حياة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليمحص الله إيمان هؤلاء الأعراب من حول المدينة .

والمهم أن نلحظ طريقة التربية القرآنية ، وطريقة علاج النفوس والقلوب ، بالتوجيهات القرآنية، والابتلاءات الواقعية. وهذا كله ظاهر فى كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين؟ وفى توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيمانى القويم .

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع ، فقد بين الله أصحاب الأعذار الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد ، بلا حرج ولاعقاب :

« ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذابا أليما » ..

فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد . والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ .

والأمر فى حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان . هو حالة نفسية لا أوضاع شكلية . فمن يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه . ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره . ولمن شاء أن يوازن بين مشقات الجهاد وجزائه ، وبين راحة القعود وماوراءه .. ثم يختار !

« لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، فَأَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ

عَزِيزاً حَكِيماً * وَعَدَكُمُ ٱللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ، فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ، وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنْكُمْ ، وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً * وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللهُ بِهَا ، وَكَانَ ٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً * وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَارَ ، ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً * سُنَّةَ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلًا * وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ ٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ؛ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ ٱللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ ٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً .

« لَقَدْ صَدَقَ ٱللهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِٱلْحَقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ – إِنْ شَاءَ ٱللهُ – آمِنِينَ ، مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيباً * هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ، وَكَفَىٰ بِٱللهِ شَهِيداً .

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ ، وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَاناً ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ . ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ . وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ، فَٱسْتَغْلَظَ ، فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ، يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ، لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ . وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً » ..

هذا الدرس كله حديث عن المؤمنين ، وحديث مع المؤمنين . مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التى بايعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحت الشجرة. والله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها ، ويده فوق أيديهم فيها . تلك المجموعة التى سمعت الله تعالى يقول عنها لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم مافى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » . . وسمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول لها : « أنتم اليوم خير أهل الأرض [1] » . .

حديث عنها من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحديث معها من الله سبحانه وتعالى: يبشرها بما أعد لها من مغانم كثيرة وفتوح ؛ وما أحاطها به من رعاية وحماية فى هذه الرحلة ، وفيما سيتلوها ؛ وفيما قدر لها من نصر موصول بسنته التى لا ينالها التبديل أبدا . ويندد بأعدائها الذين كفروا تنديدا شديدا . ويكشف لها عن حكمته فى اختيار الصلح والمهادنة فى هذا العام . ويؤكد لها صدق الرؤيا التى رآها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن دخول المسجد الحرام . وأن المسلمين سيدخلونه آمنين لا يخافون . وأن دينه سيظهر على الدين كله فى الأرض جميعا . .

ويختم الدرس والسورة بتلك الصورة الكريمة الوضيئة لهذه الجماعة الفريدة السعيدة من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفتها فى التوراة وصفتها فى الإنجيل ، ووعد الله لها بالمغفرة والأجر العظيم . .

* * *

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم مافى قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزا حكيما » . .

وإنى لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التى شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوى الكريم من الله العلى العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين . أحاول أن أستشرف صفحة الوجود فى تلك اللحظة وضميره المكنون ؛ وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهى الكريم ، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك فى بقعة معينة من هذا الوجود . . وأحاول أن أستشعر بالذات شيئا من حال أولئك السعداء الذين يسمعون

(١) أخرجه البخارى فى ٦٤/ كتاب المغازى ، ٣٥ باب غزوة الحديبية، حديث ١٦٨٥ عن جابر بن عبدالله

بآذانهم ، أنهم هم ، بأشخاصهم وأعيانهم ، يقول الله عنهم : لقد رضى عنهم . ويحدد المكان الذى كانوا فيه ، والهيئة التى كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضى : « إذ يبايعونك تحت الشجرة » . . يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق ، على لسان ربه العظيم الجليل . .

يالله ! كيف تلقوا — أولئك السعداء — تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهى ؟ التبليغ الذى يشير إلى كل أحد ، فى ذات نفسه ، ويقول له : أنت . أنت بذاتك . يبلغك الله . لقد رضى عنك . وأنت تبايع . تحت الشجرة ! وعلم مافى نفسك . فأنزل السكينة عليك !

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع : « الله ولى الذين آمنوا » . . فيسعد . يقول فى نفسه : ألست أطمع أن أكون داخلا فى هذا العموم ؟ ويقرأ أو يسمع : « إن الله مع الصابرين » . . فيطمئن . يقول فى نفسه : ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين ؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون . واحدا واحدا . أن الله يقصده بعينه وبذاته . ويبلغه : لقد رضى عنه ! وعلم مافى نفسه . ورضى عما فى نفسه ! .

يالله ! إنه أمر مهول !

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » . . « فعلم مافى قلوبهم . فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » . .

علم مافى قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم . وعلم ما فى قلوبهم من الصدق فى بيعتهم . وعلم مافى قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز ، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — طائعين مسلمين صابرين .

« فأنزل السكينة عليهم » . . بهذا التعبير الذى يرسم السكينة نازلة فى هينة وهدوء ووقار ، تضفى على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة ، بردا وسلاما وطمأنينة وارتياحا .

« وأثابهم فتحا قريبا » . . هو هذا الصلح بظروفه التى جعلت منه فتحا ، وجعلته بدء فتوح كثيرة . قد يكون فتح خيبر واحدا منها . وهو الفتح الذى يذكره أغلب المفسرين على أنه هو هذا الفتح القريب الذى جعله الله للمسلمين .

« ومغانم كثيرة يأخذونها » . . إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خيبر . وإما تاليا له ، إن كان الفتح هو هذا الصلح ، الذى تفرغ به المسلمون لفتوح شتى .

« وكان الله عزيزا حكيما » . . وهو تعقيب مناسب للآيات قبله . ففى الرضى والفتح

والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة ، كما تتجلى الحكمة والتدبير . وبهما يتم تحقيق الوعد الإلهى الكريم .

* * *

وبعد ذلك التبليغ العلوى الكريم للرسول الأمين عن المؤمنين المبايعين يتجه بالحديث إلى المؤمنين أنفسهم. الحديث عن هذا الصلح، أو عن هذا الفتح ، الذى تلقوه صابرين مستسلمين :

« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ،فعجل لكم هذه، وكف أيدى الناس عنكم، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شىء قديرا » ..

وهذه بشرى من الله للمؤمنين سمعوها وأيقنوها ، وعلموا أن الله أعد لهم مغانم كثيرة ، وعاشوا بعد ذلك ماعاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذى لايخلف . وهنا يقول لهم : إنه قد عجل لهم هذه . وهذه قد تكون صلح الحديبية ـ كما روى عن ابن عباس ـ لتأكيد معنى أنه فتح ومغنم . وهو فى حقيقته كذلك كما أسلفنا من قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن وقائع الحال الناطقة بصدق هذا الاعتبار . كما أنها قد تكون فتح خيبر ـ كما روى عن مجاهد ـ باعتبار أنها أقرب غنيمة وقعت بعد الحديبية . والأول أقرب وأرجح .

ويمن الله عليهم بأنه كف أيدى الناس عنهم .وقد كف الله عنهم أيدى المشركين من قريش كما كف أيدى سواهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر . وهم قلة على كل حال ، والناس كثرة . ولكنهم وفوا ببيعتهم ، ونهضوا بتكاليفهم ، فكف الله أيدى الناس عنهم ، وأمنهم .

« ولتكون آية للمؤمنين »..هذه الوقعة التى كرهوها فى أول الأمر ، وثقلت على نفوسهم. فالله ينبئهم أنها ستكون آية لهم ، يرون فيها عواقب تدبير الله لهم ، وجزاء طاعتهم لرسول الله واستسلامهم . مما يثبت فى نفوسهم أنها شىء عظيم ، وخير جزيل ، ويلقى السكينة فى قلوبهم والاطمئنان والرضى واليقين .

« ويهديكم صراطا مستقيما » . . جزاء طاعتكم وامتثالكم وصدق سريرتكم . وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه ، والهداية يرزقونها . فيتم لهم الخير من كل جانب . فى الأمر الذى كرهوه واستعظموه . وهكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار ؛ ويربى قلوبهم على الطاعة المطلقة والامتثال .

كذلك يمن عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه . لم يقدروا عليها بقوتهم ، ولـكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره :

« وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديرا » ..

وتختلف الروايات في هذه الأخرى . أهي فتح مكة ؟ أهي فتح خيبر؟أهي فتوح مملـكتي كسرى وقيصر ؟ أهي فتوح المسلمين التي تلت هذه الوقعة جميعا ؟

وأقرب مايناسب السياق أن تـكون هي فتح مكة . بعد صلح الحديبية وبسبب من هذا الصلح . الذي لم يدم سوى عامين ، ثم نقضه المشركون ، ففتح الله مكةللمسلمين بلا قتال تقريبا. وهي التي استعصت عليهم من قبل ، وهاجمتهم في عقر دارهم ، وردتهم عام الحديبية . ثم أحاط الله بها ، وسلمها لهم بلاقتال — « وكان الله على كل شيء قديرا » .. فهذه بشرى ملفوفة في هذا الموضع ، لم يحددها لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيبا من غيب الله.أشار إليه هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرضى والتطلع والاستبشار .

وبمناسبة هذه الإشارة إلى الغنيمةالحاضرة ، والغنيمةالتيقد أحاط الله بها،وهم فيانتظارها ، يقرر لهم أنهم منصورون؛ وأن الصلح في هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف،أولأنالمشركينأقوياء . ولـكنه تم لحـكمة يريدها . ولوقاتلهم الذين كفروا لهزموا . فتلك سنة الله حيثما التقى المؤمنون والـكافرون في موقعة فاصلة :

« ولوقاتلـكم الذين كفروا لولوا الأدبار ، ثم لايجدون وليا ولانصيرا . سنة الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » ..

وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الـكفار بسنته الـكونية الثابتة التي لاتتبدل . فأية سكينة ؟ وأية ثقة ؟ وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم ؛ وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية في هذا الوجود ؟

وهي سنة دائمة لاتتبدل .ولـكنهاقد تتأخر إلى أجل . ولأسبابقد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم الاستقامةالتي يعرفها الله لهم . أوتتعلق بتهيئة الجو الذي يولد فيه النصر للمؤمنينوالهزيمة للـكافرين ، لتـكون له قيمته وأثره. أولغير هذا وذلك مما يعلمه الله . ولـكن السنة لاتتخلف . والله أصدق القائلين : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » . .

كذلكيمن عليهم بكف أيدي المشركين عنهم،وكف أيديهمعن المشركينمن بعد ماأظفرهم

على من هاجموهم . مشيرا إلى ذلك الحادث الذى أراد أربعون من المشركين أو أكثر أو أقل، أن ينالوا من معسكر المسلمين . فأخذوا وعفا عنهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« وهو الذى كف أيديهم عنكم ، وأيديكم عنهم ببطن مكة . من بعد أن أظفركم عليهم . وكان الله بما تعملون بصيرا » . .

وهو حادث وقع ، يعرفه السامعون ؛ والله يذكره لهم فى هذا الأسلوب ، ليرد كل حركة، وكل حادث وقع لهم إلى تدبيره المباشر ؛ وليوقع فى قلوبهم هذا الإحساس المعين بيد الله سبحانه وهى تدبر لهم كل شىء ، وتقود خطاهم ، كما تقود خواطرهم ، ليسلموا أنفسهم كلها لله ، بلا تردد ولا تلفت، ويدخلوا بهذا فى السلم كافة ، بكل مشاعرهم وخواطرهم ، واتجاههم ونشاطهم؛ موقنين أن الأمر كله لله، وأن الخيرة مااختاره الله، وأنهم مسيرون بقدره ومشيئته فيما يختارون. وفيما يرفضون . وأنه يريد بهم الخير . فإذا استسلموا له تحقق لهم الخير كله من أيسر طريق . وهو بصير بهم ، ظاهرهم وخافيهم ، فهو يختار لهم عن علم وعن بصر . ولن يضيعهم ، ولن يضيع عليهم شيئا يستحقونه : « وكان الله بما تعملون بصيرا » . .

***

ثم يحدثهم عن خصومهم ، من هم فى ميزان الله؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم وصدهم للمؤمنين عن بيته الحرام . وكيف ينظر إليهم هم عكس ما ينظر إلى خصومهم المعتدين :

« هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام ، والهدى معكوفا أن يبلغ محله . ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطأوهم ، فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء . لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما . إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ؛ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شىء عليما » . .

هم فى ميزان الله واعتباره ، الكافرون حقا ، الذين يستحقون هذا الوصف الكريه : «هم الذين كفروا » . . يسجله عليهم كأنهم متفردون به ، عريقون فى النسبة إليه ، فهم أكره شىء إلى الله الذى يكره الكفر والكافرين ! كذلك يسجل عليهم فعلهم الكريه الآخر ، وهو صدهم للمؤمنين عن المسجد الحرام ، وصد الهدى وتركه محبوسا عن الوصول إلى محل ذبحه المشروع :

« وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله » . .

وهى كبيرة فى الجاهلية وفى الإسلام . كبيرة فى الأديان كلها التى يعرفونها فى الجزيرة من لدن أبيهم إبراهيم . كريهة فى عرفهم وفى عقيدتهم وفى عقيدة المؤمنين . . فلم يكن إذن كف الله للمؤمنين عنهم بقيا عليهم لأن جرمهم صغير . كلا ! إنما كان ذلك لحكمة أخرى يتلطف الله سبحانه فيكشف عنها للمؤمنين :

« ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطأوهم ، فتصيبكم منهم معرة بغير علم » . .

فلقد كان هنالك بعض المستضعفين من المسلمين فى مكة لم يهاجروا ، ولم يعلنوا إسلامهم تقية فى وسط المشركين. ولو دارت الحرب ، وهاجم المسلمون مكة، وهم لايعرفون أشخاصهم، فربما وطأوهم وداسوهم وقتلوهم . فيقال : إن المسلمين يقتلون المسلمين! ويلزمون بدياتهم حين يتبين أنهم قتلوا خطأ وهم مسلمون.. ثم هنالك حكمة أخرى وهى أن الله يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، من قسمت له الهداية ، ومن قدر له الله الدخول فى رحمته، بما يعلمه من طبيعته وحقيقته ؛ ولو تميز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين فى القتال ، ولعذب الكافرين العذاب الأليم :

« ليدخل الله فى رحمته من يشاء . لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما » . .

وهكذا يكشف الله للجماعة المختارة الفريدة السعيدة عن جانب من حكمته المغيبة وراء تقديره وتدبيره .

ويمضى فى وصف الذين كفروا . وصف نفوسهم من الداخل . بعد تسجيل صفتهم وعملهم الظاهر :

« إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » . .

حمية لا للعقيدة ولا للمنهج . إنما هى حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت . الحمية التى جعلتهم يقفون فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه، يمنعونهم من المسجد الحرام، ويحبسون الهدى الذى ساقوه ، أن يبلغ محله الذى ينحر فيه . مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة. كى لا تقول العرب ، إنه دخلها عليهم عنوة . ففى سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة فى كل عرف ودين ؛ وينتهكون حرمة البيت الحرام الذى يعيشون على

حساب قداسته ؛ وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في جاهلية ولا إسلام! وهي الحمية التي بدت في تجبيهم لكل من أشار عليهم — أول الأمر — بخطة مسالمة ، وعاب عليهم صد محمد ومن معه عن بيت الله الحرام . وهي كذلك التي تبدت في رد سهيل ابن عمرو لاسم الرحمان الرحيم ، ولصفة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في أثناء الكتابة . وهي كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعجرفة المتعنتة بغير حق .

وقد جعل الله الحمية في نفوسهم على هذا النحو الجاهلي ، لما يعلمه في نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له . فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية . وأحل محلها السكينة ، والتقوى :

« فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . وألزمهم كلمة التقوى . وكانوا أحق بها وأهلها » . .

والسكينة الوقورة الهادئة ، كالتقوى المتحرجة المتواضعة كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه ، الساكن بهذه الصلة . المطمئن بما فيه من ثقة . المراقب لربه في كل خالجة وكل حركة ، فلا يتبطر ولا يطغى ؛ ولا يغضب لذاته ، إنما يغضب لربه ودينه. فإذا أمر أن يسكن ويهدأ خشع وأطاع . في رضى وطمأنينة .

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى ، وكانوا أهلها. وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم. إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة ، وما أودع فيها من تقوى . فهم قد استحقوها في ميزان الله ، وبشهادته ؛ وهو تكريم بعد تكريم ، صادر عن علم وتقدير ؛

« وكان الله بكل شيء عليما » . .

* * *

ولقد مر بنا أن بعض المؤمنين الذين خرجوا مستبشرين برؤيا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد هالهم ألا تتحقق الرؤيا هذا العام ؛ وأن يردوا عن المسجد الحرام . فالله يؤكد لهم صدق هذه الرؤيا ، وينبئهم أنها منه، وأنها واقعة ولابد . وأن وراءها ماهو أكبر من دخول المسجد الحرام أيضا :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق: لتدخلن المسجد الحرام — إن شاء الله — آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . فعلم مالم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » . .

فأما البشري الأولى . بشرى تصديق رؤيا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ودخولهم المسجد الحرام آمنين ، وتحليقهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة ، لا يخافون . . فأما هذه فقد تحققت بعد عام واحد . ثم تحققت بصورة أكبر وأجلى بعد عامين اثنين من صلح الحديبية . إذ تم لهم فتح مكة ، وغلبة دين الله عليها .

ولكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان ؛ وهو يقول لهم : « لتدخلن المسجد الحرام — إن شاء الله — » . . فالدخول واقع حتم ، لأن الله أخبر به . ولكن المشيئة يجب أن تظل فى نفوس المسلمين فى صورتها الطليقة لايقيدها شىء حتى تستقر هذه الحقيقة فى القلوب، وتصبح هى قاعدة التصور للمشيئة الإلهية . والقرآن يتكىء على هذا المعنى ، ويقرر هذه الحقيقة ، ويذكر هذا الاستثناء فى كل موضع ، حتى المواضع التى يذكر فيها وعد الله . ووعد الله لايخلف . ولكن تعلق المشيئة به أبدا طليق. إنه أدب يلقيه الله فى روع المؤمنين ، ليستقر منهم فى أعماق الضمير والشعور .

ونعود إلى قصة تحقيق هذا الوعد ؛ فقد ذكرت الروايات أنه لما كان ذو القعدة من سنة سبع — أى العام التالى لصلح الحديبية— خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية . فأحرم من ذى الحليفة، وساق معه الهدى — كما أحرم وساق الهدى فى العام قبله — وسار أصحابه يلبون . فلما كان — صلى الله عليه وسلم — قريبا من مر الظهران بعث محمد ابن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه . فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا ، وظنوا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذى بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة . فلما جاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسى والنبل والرماح إلى بطن ياجج، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة فى قربها كما شارطهم عليه.فلما كان فى أثناءالطريق بعثت قريش مكرز ابن حفص ، فقال : يامحمد ، ما عرفناك تنقض العهد . فقال — صلى الله عليه وسلم — : « وما ذاك ؟ » قال : دخلت علينا بالسلاح والقسى والرماح . فقال — صلى الله عليه وسلم — : « لم يكن ذلك ، وقد بعثنا به إلى ياجج » فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء !

وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله —صلى الله عليه وسلم— وإلى أصحابه — رضى الله عنهم — غيظا وحنقا . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان

فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه . فدخلها ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى ، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله ابن رواحة الأنصارى آخذ بزمام الناقة يقودها .

وهكذا صدقت رؤيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتحقق وعد الله . ثم كان الفتح فى العام الذى يليه . وظهر دين الله فى مكة . ثم ظهر فى الجزيرة كلها بعد . ثم تحقق وعد الله وبشراه الأخيرة حيث يقول :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » ..

فلقد ظهر دين الحق ، لا فى الجزيرة وحدها ، بل ظهر فى المعمور من الأرض كلها قبل مضى نصف قرن من الزمان . ظهر فى امبراطورية كسرى كلها ، وفى قسم كبير من امبراطورية قيصر ، وظهر فى الهند وفى الصين ، ثم فى جنوب آسيا فى الملايو وغيرها ، وفى جزر الهند الشرقية (أندونسيا) .. وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض فى القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادى .

ومايزال دين الحق ظاهرا على الدين كله ـ حتى بعد انحساره السياسى عن جزء كبير من الأرض التى فتحها ، وبخاصة فى أوربا وجزر البحر الأبيض . وانحسار قوة أهله فى الأرض كلها بالقياس إلى القوى التى ظهرت فى الشرق والغرب فى هذا الزمان .

أجل مايزال دين الحق ظاهرا على الدين كله ، من حيث هو دين . فهو الدين القوى بذاته ، القوى بطبيعته ، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله ! لما فى طبيعته من استقامة مع الفطرة ومع نواميس الوجود الأصيلة؛ ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح ، وحاجات العمران والتقدم ، وحاجات البيئات المتنوعة، من ساكنى الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب !

ومامن صاحب دين غير الإسلام ، ينظر فى الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة، وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة فى يسر واستقامة .. « وكفى بالله شهيدا » ..

فوعد الله قد تحقق فى الصورة السياسية الظاهرة قبل مضى قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية . ووعد الله مايزال متحققا فى الصورة الموضوعية الثابتة ؛ ومايزال هذا الدين ظاهرا

على الدين كله فى حقيقته . بل إنه هو الدين الوحيد الباقى قادرا على العمل ، والقيادة ، فى جميع الأحوال .

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لايدركون هذه الحقيقة اليوم ! فغير أهله يدركونها ويخشونها ، ويحسبون لها فى سياساتهم كل حساب !

* * *

والآن نجىء إلى ختام السورة . ختامها بتلك الصورة الوضيئة التى يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التى رضى الله عنها ، وبلغها رضاه فردا فردا :

« محمد رسول الله. والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة. ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه، فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه، يعجب الزراع، ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » . .

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع . صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ، حالاتها الظاهرة والمضمرة . فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ولقطة تصور هيئتهم فى عبادتهم: « تراهم ركعا سجدا » . . ولقطة تصور قلوبهم ومايشغلها ويجيش بها: « يبتغون فضلا من الله ورضوانا » . . ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله فى سمتهم وسحنتهم وسماتهم : « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » . . « ذلك مثلهم فى التوراة » . . وهذه صفتهم فيها . . ولقطات متتابعة تصورهم كما هم فى الإنجيل. . « كزرع أخرج شطأه » « فآزره » . . « فاستغلظ » « فاستوى على سوقه » « يعجب الزراع » . . : « ليغيظ بهم الكفار » . .

وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد — صلى الله عليه وسلم — صفته التى أنكرها سهيل ابن عمرو ومن وراءه من المشركين : « محمد رسول الله » . . ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع .

والمؤمنون لهم حالات شتى . ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة فى حياتهم ، ونقط الارتكاز الأصيلة فى هذه الحياة. وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة فى الصورة الوضيئة . .

وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها. التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة.

إرادة التكريم واضحة، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » . . أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعا. رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين. فهي الشدة لله والرحمة لله. وهي الحمية للعقيدة، والسماحة للعقيدة. فليس لهم في أنفسهم شيء، ولا لأنفسهم فيهم شيء. وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها. يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوتهم فيها. قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى، ومن الانفعال لغير الله، والوشيجة التي تربطهم بالله.

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة : « تراهم ركعا سجدا » . . والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم. ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم ؛ فعبر عنها تعبيرا يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعا سجدا.

واللقطة الثالثة مثلها. ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم : « يبتغون فضلا من الله ورضوانا » . . فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة. كل ما يشغل بالهم، وكل ماتتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به.

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم، ونضحها على سماتهم: « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » . . سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف. وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله : « من أثر السجود » .. فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة. واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها. فهو أثر هذا الخشوع. أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة. ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاءة الهادئة، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلا.

وهذه الصورة الوضيئة التى تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة . إنما هى ثابتة لهم فى لوحة القدر ؛ ومن ثم فهى قديمة جاء ذكرها فى التوراة: «ذلك مثلهم فى التوراة» .. وصفتهم التى عرفهم الله بها فى كتاب موسى ، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها .

«ومثلهم فى الإنجيل» .. وصفتهم فى بشارته بمحمد ومن معه ، أنهم : « كزرع أخرج شطأه» . فهو زرع نام قوى ، يخرج فرخه من قوته وخصوبته . ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده . « فآزره » . أو أن العود آزر فرخه فشده . « فاستغلظ » الزرع وضخمت ساقه وامتلأت . « فاستوى على سوقه » لا معوجا ومحنيا . ولكن مستقيما قويا سويا . .

هذه صورته فى ذاته . فأما وقعه فى نفوس أهل الخبرة فى الزرع، العارفين بالنامى منه والذابل. المثمر منه والبائر . فهو وقع البهجة والإعجاب : « يعجب الزراع » . وفى قراءة يعجب « الزارع » . . وهو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صاحب هذا الزرع النامى القوى المخصب البهيج . . وأما وقعه فى نفوس الكفار فعلى العكس . فهو وقع الغيظ والكمد : « ليغيظ بهم الكفار » . . وتعمد إغاظة الكفار يوحى بأن هذه الزرعة هى زرعة الله . أو زرعة رسوله ، وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاظة أعداء الله !

وهذا المثل كذلك ليس مستحدثا ، فهو ثابت فى صفحة القدر . ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجىء محمد ومن معه إلى هذه الأرض . ثابت فى الإنجيل فى بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون .

وهكذا يثبت الله فى كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة .. صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فتثبت فى صلب الوجود كله ، وتتجاوب بها أرجاؤه ، وهو يتسمع إليها من بارىء الوجود . وتبقى نموذجا للأجيال ، تحاول أن تحققها ، لتحقق معنى الإيمان فى أعلى الدرجات .

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .. وهو وعد يجىء فى هذه الصيغة العامة بعد ماتقدم من صفتهم ، التى تجعلهم أول الداخلين فى هذه الصيغة العامة .

مغفرة وأجر عظيم . . وذلك التكريم وحده حسبهم . وذلك الرضى وحده أجر عظيم . ولكنه الفيض الإلهى بلا حدود ولا قيود ، والعطاء الإلهى عطاء غير مجذوذ .

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرنا أن استشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء

وقلوبهم . وهم يتلقون هذا الفيض الإلهى من الرضى والتكريم والوعد العظيم . وهم يرون أنفسهم هكذا فى اعتبار الله ، وفى ميزان الله ، وفى كتاب الله . وأنظر اليهم وهم عائدون من الحديبية ، وقد نزلت هذه السورة ، وقد قرئت عليهم . وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم . وينظر بعضهم فى وجوه بعض فيرى أثر النعمة التى يحسها هو فى كيانه .

وأحاول أن أعيش معهم لحظات فى هذا المهرجان العلوى الذى عاشوا فيه .. ولـكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه . إلامن بعيد ؟ !

اللهم إلا من يكرمه الله إكرامهم : فيقرب له البعيد ؟ !

فاللهم إنك تعلم أنى أتطلع لهذا الزاد الفريد !!!

سُورَةُ الحُجُرَاتِ مَدَنِيَّة
وآياتها ١٨

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ، أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ، أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ ، وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا . فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ، عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ، عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ! وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ؟ فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ .

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

« قَالَتِ الْأَعْرَابُ : آمَنَّا . قُلْ : لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَٰكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنَا . وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ . وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * قُلْ : أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا . قُلْ : لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » . .

هذه السورة ، التي لا تتجاوز ثماني عشرة آية ، سورة جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية . حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقا عالية وآمادا بعيدة ؛ وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة ؛ وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم ، وقواعد التربية والتهذيب ، ومبادئ التشريع والتوجيه ، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات !

وهى تبرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبر والتفكير .

وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة ، هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة ، لعالم رفيع كريم نظيف سليم ؛ متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التى يقوم عليها هذا العالم ؛ والتى تكفل قيامه أولا ، وصيانته أخيرا . . عالم يصدر عن الله ، ويتجه إلى الله، ويليق أن ينتسب إلى الله .. عالم نقى القلب، نظيف المشاعر ، عف اللسان، وقبل ذلك عف السريرة.. عالم له أدب مع الله ، وأدب مع رسوله ، وأدب مع نفسه ، وأدب مع غيره . أدب فى هواجس ضميره ، وفى حركات جوارحه . وفى الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه ، وله نظمه التى تكفل صيانته . وهى شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب ، وتنبثق منه ، وتتسق معه ؛ فيتوافق باطن هذا العالم وظاهره ، وتتلاقى شرائعه ومشاعره ، وتتوازن دوافعه وزواجره ؛ وتتناسق أحاسيسه وخطاه ، وهو يتجه ويتحرك إلى الله . . ومن ثم لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانته ، لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور ؛ ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم . بل يلتقى هذا بذلك فى انسجام وتناسق . كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده ، كما لا يترك لنظم الدولة وإجراءاتها . بل يلتقى فيه الأفراد بالدولة ، والدولة بالأفراد ؛ وتتلاقى واجباتهما ونشاطهما فى تعاون واتساق .

هو عالم له أدب مع الله ، ومع رسول الله . يتمثل هذا الأدب فى إدراك حدود العبد أمام الرب ، والرسول الذى يبلغ عن الرب : « يأأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله ، إن الله سميع عليم » . . فلا يسبق العبد المؤمن إلهه فى أمر أو نهى ، ولا يقترح عليه فى قضاء أوحكم ؛ ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه ؛ ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأيا مع خالقه . . تقوى منه وخشية ، وحياء منه وأدبا . . وله أدب خاص فى خطاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتوقيره : « يأأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم. إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » .

وهو عالم له منهجه فى التثبت من الأقوال والأفعال ، والاستيثاق من مصدرها ، قبل الحكم عليها. يستند هذا المنهج إلى تقوى الله ، وإلى الرجوع بالأمر إلى رسول الله ، فى غير ماتقدم بين

يديه ، ولااقتراح لم يطلبه ولم يأمر به : « ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على مافعلتم نادمين ؛ واعلموا أن فيكم رسول الله ، لويطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم . ولكن الله حبب إليكم الإيمان ، وزينه فى قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم » . .

وهو عالم له نظمه وإجراءاته العملية فى مواجهة مايقع فيه من خلاف وفتن وقلاقل واندفاعات، تخلخل كيانه لوتركت بغيرعلاج . وهو يواجهها بإجراءات عملية منبثقة من قاعدة الأخوة بين المؤمنين ، ومن حقيقة العدل والإصلاح ،ومن تقوى الله والرجاءفى رحمتهورضاه : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ؛ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » . .

وهو عالم له آدابه النفسيةفى مشاعره تجاه بعضهالبعض؛ وله آدابه السلوكية فى معاملاته بعضه مع بعض : « ياأيها الذين آمنوا لايسخرقوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم؛ ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ؛ ولاتلمزوا أنفسكم ، ولاتنابزوا بالألقاب . بئس الاسم: الفسوق بعد الإيمان . .ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » . .

وهو عالم نظيف المشاعر ، مكفول الحرمات ، مصون الغيبة والحضرة ، لايؤخذ فيه أحد بظنة ، ولاتتبع فيه العورات ، ولايتعرض أمن الناس وكرامتهم وحريتهم فيه لأدنى مساس : « ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم، ولاتجسسوا ،ولايغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه ! واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم » . .

وهو عالم له فكرتهالكاملة عنوحدة الإنسانيةالمختلفة الأجناسالمتعددة الشعوب ؛وله ميزانه الواحد الذى يقوّم به الجميع . إنه ميزان الله المبرأ من شوائب الهوى والاضطراب : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . .

والسورة بعد عرض هذه الحقائق الضخمة التى تكاد تستقل برسم معالم ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم ، تحدد معالم الإيمان ، الذى باسمه دُعى المؤمنون إلى إقامة ذلك العالم.

وباسمه يُهتف لهم ليلبوا دعوة الله الذى يدعوهم إلى تكاليفه بهذا الوصف الجميل، الحافز إلى التلبية والتسليم : « ياأيها الذين آمنوا » .. ذلك النداء الحبيب الذى يخجل من يدعى به من الله أن لايجيب ؛ والذى ييسر كل تكليف ويهون كل مشقة ، ويشوق كل قلب فيسمع ويستجيب : « قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ، إن الله غفور رحيم. إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل : أتعلمون الله بدينكم ، والله يعلم مافى السماوات وما فى الأرض ، والله بكل شيء عليم » . .

وتكشف السورة فى ختامها عن ضخامة الهبة الإلهية للبشر . هبة الإيمان التى يمن بها على من يشاء ، وفق مايعلمه فيه من استحقاق : « يمنون عليك أن أسلموا . قل : لاتمنوا على إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون » ..

فأما الأمر الثانى الذى يبرز للنظر من خلال السورة ، ومن مراجعة المناسبات الواقعية التى صاحبت نزول آياتها ، فهو هذا الجهد الضخم الثابت المطرد ، الذى تمثله توجيهات القرآن الكريم والتربية النبوية الحكيمة ، لإنشاء وتربية تلك الجماعة المسلمة ، التى تمثل ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم ، الذى وجدت حقيقته يوما على هذه الأرض ؛ فلم يعد منذ ذلك الحين فكرة مثالية ، ولاحلما طائرا ، يعيش فى الخيال !

هذه الجماعة المثالية التى تمثلت حقيقة واقعة فى فترة من فترات التاريخ لم تنبت فجأة ولم توجد مصادفة ؛ ولم تخلق بين يوم وليلة . كذلك لم تظهر نتيجة نفخة تغير طبائع الأشياء كلها فى لحظة أو ومضة . بل نمت نموا طبيعيا بطيئا كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور . وأخذت الزمن اللازم لنموها ، كما أخذت الجهد الموصول الثابت المطرد الضرورى لهذا النمو . واحتاجت إلى العناية الساهرة ، والصبر الطويل ، والجهد البصير ، فى التهذيب والتشذيب ، والتوجيه والدفع ، والتقوية والتثبيت . واحتاجت إلى معاناة التجارب الواقعية المريرة والابتلاءات الشاقة المضنية ؛ مع التوجيه لعبرة هذه التجارب والابتلاءات . . وفى هذا كله كانت تتمثل الرعاية الإلهية لهذه الجماعة المختارة ــ على علم ــ لحمل هذه الأمانة الكبرى ؛ وتحقيق مشيئة الله بها فى الأرض . وذلك

مع الفضائل الكامنة والاستعدادات المكنونة فى ذلك الجيل ؛ وفى الظروف والأحوال المهيأة له على السواء . وبهذا كله أشرقت تلك الومضة العجيبة فى تاريخ البشرية ؛ ووجدت هذه الحقيقة التى تتراءى من بعيد وكأنها حلم مرفرف فى قلب ، أورؤيا مجنحة فى خيال !

* * *

« ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم . ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » . .

تبدأ السورة بأول نداء حبيب ، وأول استجاشة للقلوب . « ياأيها الذين آمنوا » .. نداء من الله للذين آمنوا به بالغيب . واستجاشة لقلوبهم بالصفة التى تربطهم به ، وتشعرهم بأنهم له ، وأنهم يحملون شارته ، وأنهم فى هذا الكوكب عبيده وجنوده ، وأنهم هنا لأمر يقدره ويريده ، وأنه حبب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم اختيارا لهم ومنة عليهم ، فأولى لهم أن يقفوا حيث أراد لهم أن يكونوا ، وأن يقفوا بين يدى الله موقف المنتظر لقضائه وتوجيهه فى نفسه وفى غيره ، يفعل ما يؤمر ويرضى بما يقسم ، ويسلم ويستسلم :

« ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم » ..

ياأيها الذين آمنوا ، لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحا ، لا فى خاصة أنفسكم ، ولا فى أمور الحياة من حولكم . ولا تقولوا فى أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله ، ولا تقضوا فى أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله .

قال قتادة : ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل فى كذا وكذا . لو صح كذا . فكره الله تعالى ذلك . وقال العوفى : نهوا أن يتكلموا بين يديه . وقال مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بشىء حتى يقضى الله تعالى على لسانه . وقال الضحاك : لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم . وقال على ابن طلحة عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة .

فهو أدب نفسى مع الله ورسوله . وهو منهج فى التلقى والتنفيذ . وهو أصل من أصول التشريع والعمل فى الوقت ذاته . . وهو منبثق من تقوى الله ، وراجع إليها . هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم . . وكل ذلك فى آية واحدة قصيرة ، تلمس وتصور كل هذه الحقائق الأصيلة الكبيرة .

وكذلك تأدب المؤمنون مع ربهم ومع رسولهم؛ فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله؛ وما عاد واحد منهم يدلى برأى لم يطلب منه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يدلى به ؛ وما عاد أحد منهم يقضى برأيه فى أمر أو حكم ، إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول . .

روى أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه — باسناده — عن معاذ — رضى الله عنه — حيث قال له النبى — صلى الله عليه وسلم — حين بعثه إلى اليمن : « بم تحكم ؟ » قال : بكتاب الله تعالى . قال — صلى الله عليه وسلم — : « فإن لم تجد ؟ » قال : بسنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال — صلى الله عليه وسلم — : « فإن لم تجد ؟ » قال — رضى الله عنه — : أجتهد رأيى . فضرب فى صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما يرضى رسول الله .

وحتى لكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يسألهم عن اليوم الذى هم فيه ، والمكان الذى هم فيه ، وهم يعلمونه حق العلم ، فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم : الله ورسوله أعلم . خشية أن يكون فى قولهم تقدم بين يدى الله ورسوله !

جاء فى حديث أبى بكرة نفيع ابن الحارث الثقفى — رضى الله عنه — أن النبى — صلى الله عليه وسلم — سأل فى حجة الوداع :

« أى شهر هذا ؟ » . . قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا : بلى ! قال : « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : « أليس البلدة الحرام ؟ » قلنا : بلى ! قال : « فأى يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى ! . . . الخ .

فهذه صورة من الأدب ، ومن التحرج ، ومن التقوى ، التى انتهى إليها المسلمون بعد سماعهم ذلك النداء ، وذلك التوجيه ، وتلك الإشارة إلى التقوى ، تقوى الله السميع العليم .

والأدب الثانى هو أدبهم مع نبيهم فى الحديث والخطاب ؛ وتوقيرهم له فى قلوبهم ، توقيراً ينعكس على نبراتهم وأصواتهم ؛ ويميز شخص رسول الله بينهم ، ويميز مجلسه فيهم ؛ والله يدعوهم إليه بذلك النداء الحبيب ؛ ويحذرهم من مخالفة ذلك التحذير الرهيب :

« ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون » ..

ياأيها الذين آمنوا . . ليوقروا النبى الذى دعاهم إلى الإيمان . . أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون . . ليحذروا هذا المزلق الذى قد ينتهى بهم إلى حبوط أعمالهم ، وهم غير شاعرين ولاعالمين ، ليتقوه !

ولقد عمل فى نفوسهم ذلك النداء الحبيب ، وهذا التحذير المرهوب ،عمله العميق الشديد:

قال البخارى : حدثنابسرةابن صفوان اللخمى،حدثنا نافع ابن عمر ، عن ابن أبى مليكة . قال : كاد الخيران أن يهلكا .. أبوبكر وعمر رضى الله عنهما . . رفعا أصواتهما عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قدم عليه ركب بنى تميم (فى السنة التاسعة من الهجرة) فأشار أحدهما بالأقرع ابن حابس ـ رضى الله عنه ـ أخى بنى مجاشع (أى ليؤمره عليهم) وأشار الآخر برجل آخر . قال نافع : لاأحفظ اسمه (فى رواية أخرى أن اسمه القعقاع ابن معبد) فقال : أبوبكر لعمر ـ رضى الله عنها ـ ماأردت إلا خلافى . قال : ماأردت خلافك . فارتفعت أصواتهما فى ذلك . فأنزل الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » . قال ابن الزبير ـ رضى‌الله عنه ـ : فما كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يسمع رسول الله ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ! . . وروى عن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال لما نزلت هذه الآية: قلت : يارسول الله ، والله لاأكلمك إلا كأخى السرار (يعنى كالهمس !) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا سليمان ابن المغيرة ، عن ثابت، عن أنس ابن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآية: « ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ـ إلى قوله : وأنتم لاتشعرون » وكان ثابت ابن قيس ابن الشماس رفيع الصوت . فقال:

أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ـ صلى اللهعليهوسلم ـ أنا منأهل النار. حبطعملى . وجلس فى أهله حزينا . ففقده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له : تفقدك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مالك ؟ قال : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأجهر له بالقول . حبط عملى . أنا من أهل النار . فأتوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبروه بما قال . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا . بل هو من أهل الجنة » . قال أنس ـ رضى الله عنه ـ : فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة

فهكذا ارتعشت قلوبهم وارتجفت تحت وقع ذلك النداء الحبيب ، وذلك التحذير الرعيب ؛ وهكذا تأدبوا فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن تحبط أعمالهم وهم لايشعرون. ولوكانوا يشعرون لتداركوا أمرهم! ولكن هذا التزلق الخافى عليهمكان أخوف عليهم، فخافوه واتقوه !

ونوه الله بتقواهم ، وغضهمأصواتهم عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـفى تعبير عجيب : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . لهم مغفرة وأجر عظيم » ..

فالتقوى هبة عظيمة ، يختار الله لها القلوب ،بعد امتحان واختبار،وبعد تخليص وتمحيص، فلا يضعها فىقلب إلا وقد تهيأ لها ، وقد ثبت أنه يستحقها . والذينيغضونأصواتهمعندرسولالله قد اختبر الله قلوبهم وهيأها لتلقى تلك الهبة . هبة التقوى . وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم .

إنه الترغيب العميق ، بعد التحذير المخيف . بها يربى الله قلوب عباده المختارين ، ويعدها للأمر العظيم . الذى نهض به الصدر الأول على هدى من هذه التربية ونور .

وقد روى عن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع صوت رجلين فى مسجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . فقال:لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا!

وعرف علماء هذه الأمة وقالوا : إنه يكره رفع الصوت عند قبره ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كان يكره فى حياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ احتراما له فى كل حال .

ثم أشار إلى حادث وقع من وفد بنى تميم حين قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العام التاسع . الذى سمى « عام الوفود » . لمجىء وفود العرب من كل مكان بعد فتح مكة ، ودخولهم فى الإسلام ، وكانوا أعرابا جفاة ، فنادوا من وراء حجرات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم المطلة على المسجد النبوى الشريف: يا محمد . اخرج لنا. فكره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الجفوة وهذا الإزعاج . فنزل قوله تعالى :

« إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » . .

فوصفهم الله بأن أكثرهم لا يعقلون . وكرّه إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب والتوقير اللائق بشخص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحرمة رسول الله القائد والمربى . وبين لهم الأولى والأفضل وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم . وحبب إليهم التوبة والإنابة ، ورغبهم فى المغفرة والرحمة .

وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع ، وتجاوزوا به شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى كل أستاذ وعالم . لا يزعجونه حتى يخرج إليهم ؛ ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم . . يحكى عن أبى عبيد ـ العالم الزاهد الراوية الثقة ـ أنه قال : « ما دققت بابا على عالم قط حتى يخرج فى وقت خروجه » . .

* * *

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ؛ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم » . .

كان النداء الأول لتقرير جهة القيادة ومصدر التلقى . وكان النداء الثانى لتقرير ما ينبغى من أدب للقيادة وتوقير . وكان هذا وذلك هو الأساس لكافة التوجيهات والتشريعات فى السورة. فلابد من وضوح المصدر الذى يتلقى عنه المؤمنون، ومن تقرير مكان القيادة وتوقيرها ، لتصبح للتوجيهات بعد ذلك قيمتها ووزنها وطاعتها. ومن ثم جاء هذا النداء الثالث يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها ؛ ويقرر ضرورة التثبت من مصدرها :

« ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على مافعلتم نادمين » . .

ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب. وحتى لايشيع الشك بين الجماعة المسلمة فى كل ماينقله أفرادها من أنباء،فيقع مايشبه الشلل فى معلوماتها. فالأصل فى الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها ، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذا بها . فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره . وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطا بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء . ولاتعجل الجماعة فى تصرف بناء على خبر فاسق . فتصيب قوما بظلم عن جهالة وتسرع . فتندم على ارتكابها مايغضب الله ، ويجانب الحق والعدل فى اندفاع .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد ابن عقبة ابن أبى معيط حين بعثه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على صدقات بنى المصطلق . وقال ابن كثير . قال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الوليد ابن عقبة إلى بنى المصطلق يتصدقهم فتلقوه بالصدقة ،فرجع فقال: إن بنى المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك (زاد قتادة وأنهم قد ارتدوا عن الإسلام) فبعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خالد ابن الوليد — رضى الله عنه — إليهم، وأمره أن يتثبت ولايعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلا ، فبعث عيونه ، فلما جاءوا أخبروا خالدا — رضى الله عنه — أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد — رضى الله عنه — فرأى الذى يعجبه، فرجع إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة . قال قتادة: فكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « التثبت من الله والعجلة من الشيطان » (١) . . وكذا ذكر غير واحد من السلف منهم ابن أبى ليلى ، ويزيد ابن رومان ، والضحاك ، ومقاتل ابن حبان . وغيرهم فى هذه الآية أنها نزلت فى الوليد ابن عقبة . والله أعلم .. (انتهى كلام ابن كثير فى التفسير) ..

ومدلول الآية عام ، وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق ؛ فأما الصالح فيؤخذ بخبره ، لأن هذا هو الأصل فى الجماعة المؤمنة ، وخبر الفاسق استثناء . والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره . أما الشك المطلق فى جميع المصادر وفى جميع الأخبار ، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة ، ومعطل لسير الحياة وتنظيمها فى الجماعة .

(١) هكذا أثبته ابن كثير فى التفسير .

والإسلام يدع الحياة تسير فى مجراها الطبيعى ، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداء . وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء فى مصادر الأخبار .

ويبدو أنه كان من بعض المسلمين اندفاع عند الخبر الأول الذى نقله الوليد ابن عقبة ، وإشارة على النبى — صلى الله عليه وسلم — أن يعجل بعقابهم . وذلك حمية من هذا الفريق لدين الله وغضبا لمنع الزكاة . فجاءت الآية التالية تذكرهم بالحقيقة الضخمة والنعمة الكبيرة التى تعيش بينهم ليدركوا قيمتها وينتبهوا دائما لوجودها :

« واعلموا أن فيكم رسول الله » . .

وهى حقيقة تتصور بسهولة لأنها وقعت ووجدت . ولكنها عند التدبر تبدو هائلة لاتكاد تتصور ! وهل من اليسير أن يتصور الإنسان أن تتصل السماء بالأرض صلة دائمة حيةمشهودة؛ فتقول السماء للأرض ؛ وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم ، وتقوم خطاهم أولا بأول ، وتشير عليهم فى خاصة أنفسهم وشؤونهم . ويفعل أحدهم الفعلة ويقول أحدهم القولة ، ويسر أحدهم الخالجة ؛ فإذا السماء تطلع ، وإذا الله — جل جلاله — ينبىء رسوله بما وقع ، ويوجهه لما يفعل وما يقول فى هذا الذى وقع . . إنه لأمر . وإنه لنبأ عظيم . وإنها لحقيقة هائلة . قد لا يحس بضخامتها من يجدها بين يديه . ومن ثم كان هذا التنبيه لوجودها بهذا الأسلوب :

« واعلموا أن فيكم رسول الله » . . اعلموا هذا وقدروه حق قدره ، فهو أمر عظيم .

ومن مقتضيات العلم بهذا الأمر العظيم أن لا يقدموا بين يدى الله ورسوله . ولكنه يزيد هذا التوجيه إيضاحا وقوة ، وهو يخبرهم أن تدبير رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لهم بوحى الله أو إلهامه فيه الخير لهم والرحمة واليسر . وأنه لو أطاعهم فيما يعن لهم أنه خير لعنتوا وشق عليهم الأمر . فالله أعرف منهم بما هو خير لهم ، ورسوله رحمة لهم فيما يدبر لهم ويختار :

« لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم » .

وفى هذا إيحاء لهم بأن يتركوا أمرهم لله ورسوله ، وأن يدخلوا فى السلم كافة ، ويستسلموا لقدر الله وتدبيره ، ويتلقوا عنه ولا يقترحوا عليه.

ثم يوجههم إلى نعمة الإيمان الذى هداهم إليه ، وحرك قلوبهم لحبه ، وكشف لهم عن جماله وفضله ، وعلق أرواحهم به ؛ وكره إليهم الكفر والفسوق والمعصية ، وكان هذا كله من رحمته وفيضه :

« ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » ..

واختيار الله لفريق من عباده ، ليشرح صدورهم للإيمان ، ويحرك قلوبهم إليه ، ويزينه لهم فتهفو إليه أرواحهم ، وتدرك مافيه من جمال وخير .. هذا الاختيار فضل من الله ونعمة ، دونها كل فضل وكل نعمة . حتى نعمة الوجود والحياة أصلا ، تبدو في حقيقتها أقل من نعمة الإيمان وأدنى ! وسيأتي قوله تعالى : « بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان » فنفصل القول إن شاء الله في هذه المنة .

والذى يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذى أراد بهم هذا الخير ، وهو الذى خلص قلوبهم من ذلك الشر : الكفر والفسوق والعصيان . وهو الذى جعلهم بهذا راشدين فضلا منه ونعمة . وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة . . وفي تقرير هذه الحقيقة إيحاء لهم كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتدبيره ، والاطمئنان إلى ما وراءه من خير عليهم وبركة ، وترك الاقتراح والاستعجال والاندفاع فيما قد يظنونه خيرا لهم ؛ قبل أن يختار لهم الله . فالله يختار لهم الخير ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيهم ، يأخذ بيدهم إلى هذا الخير . وهذا هو التوجيه المقصود في التعقيب .

وإن الإنسان ليعجل ، وهو لايدرى ماوراء خطوته . وإن الإنسان ليقترح لنفسه ولغيره، وهو لايعرف ماالخير وماالشر فيما يقترح . « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا » . ولو استسلم لله ، ودخل في السلم كافة،ورضى اختيار الله له ، واطمأن إلى أن اختيار الله أفضل من اختياره ، وأرحم له وأعود عليه بالخير . لاستراح وسكن . ولأمضى هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب في طمأنينة ورضى .. ولكن هذا كذلك منة من الله وفضل يعطيه من يشاء .

* * *

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » . .

وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك ، تحت النزوات والاندفاعات . تأتى تعقيبا على تبين خبر الفاسق ، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة، قبل التثبت والاستيقان .

وسواء كان نزول هذه الآية بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات ، أو كان تشريعا لتلافى مثل هذه الحالة ، فهو يمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة الجماعة الإسلامية من التفكك والتفرق . ثم لإقرار الحق والعدل والصلاح . والارتكان فى هذا كله إلى تقوى الله ورجاء رحمته بإقرار العدل والصلاح .

والقرآن قد واجه — أو هو يفترض — إمكان وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين . ويستبقى لكلتا الطائفتين وصف الإيمان مع اقتتالهما ، ومع احتمال أن إحداهما قد تكون باغية على الأخرى ، بل مع احتمال أن تكون كلتاهما باغية فى جانب من الجوانب .

وهو يكلف الذين آمنوا — من غير الطائفتين المتقاتلتين طبعا — أن يقوموا بالإصلاح بين المتقاتلين . فإن بغت إحداهما فلم تقبل الرجوع إلى الحق — ومثله أن تبغيا معا برفض الصلح أو رفض قبول حكم الله فى المسائل المتنازع عليها — فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغاة إذن ، وأن يظلوا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله . وأمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين ، وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه ، وأدى إلى الخصام والقتال . فإذا تم قبول البغاة لحكم الله ، قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة لله وطلبا لرضاه .. « إن الله يحب المقسطين » ..

ويعقب على هذه الدعوة وهذا الحكم باستجاشة قلوب الذين آمنوا واستحياء الرابطة الوثيقة بينهم ، والتى جمعتهم بعد تفرق ، وألفت بينهم بعد خصام ؛ وتذكيرهم بتقوى الله ، والتلويح لهم برحمته التى تنال بتقواه :

« إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » ..

ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هى الأصل فى الجماعة المسلمة . وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذى يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه ؛ وأن يستباح فى سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف ، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة . وهو إجراء صارم وحازم كذلك .

ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك ألا يجهز على جريح فى معارك التحكيم هذه ، وألا يقتل أسير ، وألا يتعقب مدبر ترك المعركة ، وألقى السلاح ، ولا تؤخذ أموال البغاة غنيمة . لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم ، وإنما هو ردهم إلى الصف ، وضمهم إلى لواء الأخوة الإسلامية .

والأصل فى نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين فى أنحاء الأرض إمامة واحدة ، وأنه إذا بويع لإمام ، وجب قتل الثانى ، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام . وعلى هذا الأصل قام الإمام على ـ رضى الله عنه ـ بقتال البغاة فى وقعة الجمل وفى وقعة صفين ؛ وقام معه بقتالهم أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم. وقد تخلف بعضهم عن المعركة منهم سعد ومحمد ابن مسلمة وأسامة ابن زيد وابن عمر ـ رضى الله عنهم ـ إما لأنهم لم يتبينوا وجه الحق فى الموقف فى حينه فاعتبروها فتنة . وإما لأنهم كما يقول الإمام الجصاص : « ربما رأوا الإمام مكتفيا بمن معه مستغنيا عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك » . والاحتمال الأول أرجح ، تدل عليه بعض أقوالهم المروية . كما يدل عليه ماروى عن ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ فى ندمه فيما بعد على أنه لم يقاتل مع الإمام .

ومع قيام هذا الأصل فإن النص القرآنى يمكن إعماله فى جميع الحالات ـ بما فى ذلك الحالات الاستثنائية التى يقوم فيها إمامان أو أكثر فى أقطار متفرقة متباعدة من بلاد المسلمين ، وهى حالة ضرورة واستثناء من القاعدة ـ فواجب المسلمين أن يحاربوا البغاة مع الإمام الواحد ، إذا خرج هؤلاء البغاة عليه . أو إذا بغت طائفة على طائفة فى إمامته دون خروج عليه . وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة إذا تمثلوا فى إحدى الإمامات المتعددة فى حالات التعدد الاستثنائية . بتجمعهم ضد الفئة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله . وهكذا يعمل النص القرآنى فى جميع الظروف والأحوال .

وواضح أن هذا النظام ، نظام التحكيم وقتال الفئة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله ، نظام له السبق من حيث الزمن على كل محاولات البشرية فى هذا الطريق . وله الكمال والبراءة من العيب والنقص الواضحين فى كل محاولات البشرية البائسة القاصرة التى حاولتها فى كل تجاربها الكسيحة ! وله بعد هذا وذاك صفة النظافة والأمانة والعدل المطلق ، لأن الاحتكام فيه إلى أمر الله الذى لا يشوبه غرض ولا هوى ، ولا يتعلق به نقص أو قصور . . ولكن البشرية البائسة تظلع وتعرج ، وتكبو وتتعثر . وأمامها الطريق الواضح الممهد المستقيم !

* * *

« ياأيها الذين آمنوا ، لا يسخر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيرا منهم ؛ ولا نساء من نساء ، عسى أن يكن خيرا منهن . ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » . .

إن المجتمع الفاضل الذى يقيمه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع ، ولكل فرد فيه كرامته التى لا تمس . وهى من كرامة المجموع . ولمز أى فرد هو لمز لذات النفس ، لأن الجماعة كلها وحدة ، كرامتها واحدة .

والقرآن فى هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب : « يأأيها الذين آمنوا » . وينهاهم أن يسخر قوم بقوم ، أى رجال برجال ، فلعلهم خير منهم عند الله ، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن فى ميزان الله .

وفى التعبير إيحاء خفى بأن القيم الظاهرة التى يراها الرجال فى أنفسهم ويراها النساء فى أنفسهن ليست هى القيم الحقيقية ، التى يوزن بها الناس . فهناك قيم أخرى ، قد تكون خافية عليهم ، يعلمها الله ، ويزن بها العباد . وقد يسخر الرجل الغنى من الرجل الفقير . والرجل القوى من الرجل الضعيف ، والرجل السوى من الرجل المؤوف . وقد يسخر الذكى الماهر من الساذج الخام . وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم . وذو العصبية من اليتيم . . . وقد تسخر الجميلة من القبيحة، والشابة من العجوز، والمعتدلة من المشوهة، والغنية من الفقيرة . . .ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هى المقياس ، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين !

ولكن القرآن لا يكتفى بهذا الإيحاء ، بل يستجيش عاطفة الأخوة الإيمانية، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلمزها فقد لمزها : « ولا تلمزوا أنفسكم » . . واللمز : العيب . ولكن للفظة جرسا وظلا ؛ فكأنما هى وخزة حسية لاعيبة معنوية !

ومن السخرية واللمز التنابز بالألقاب التى يكرهها أصحابها ، ويحسون فيها سخرية وعيبا . ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزرى به . ومن أدب المؤمن ألا يؤذى أخاه بمثل هذا . وقد غير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسماء وألقابا كانت فى الجاهلية لأصحابها، أحس فيها بحسه المرهف، وقلبه الكريم، بما يزرى بأصحابها، أو يصفهم بوصف ذميم.

والآية بعد الإيحاء بالقيم الحقيقية فى ميزان الله ، وبعد استجاشة شعور الأخوة ، بل شعور الاندماج فى نفس واحدة، تستثير معنى الإيمان، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنابز : « بئس الاسم : الفسوق بعد الإيمان » . فهو شىء يشبه الارتداد عن الإيمان ! وتهدد باعتبار هذا ظلما ، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك : « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » . . وبذلك تضع قواعد الأدب النفسى لذلك المجتمع الفاضل الكريم .

* * *

« ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن،إن بعض الظن إثم ، ولاتجسسوا ، ولايغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه . واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم » . .

فأما هذه الآية فتقيم سياجا آخر فى هذا المجتمع الفاضل الكريم،حول حرمات الأشخاص به وكراماتهم وحرياتهم ، بينما هى تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم ، فى أسلوب مؤثر عجيب . .

وتبدأ ـ على نسق السورة ـ بذلك النداء الحبيب : « ياأيها الذين آمنوا » .. ثم تأمرهم باجتناب كثير من الظن ، فلايتركوا نفوسهم نهبا لكل مايهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك . وتعلل هذا الأمر : « إن بعض الظن إثم » . ومادام النهى منصبا على أكثر الظن ، والقاعدة أن بعض الظن إثم ، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيء أصلا ، لأنه لايدرى أى ظنونه تكون إثما !

بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيء ، فيقع فى الإثم ؛ ويدعه نقيا بريئا من الهواجس والشكوك ، أبيض يكن لإخوانه المودة التى لايخدشها ظن السوء ؛ والبراءة التى لاتلوثها الريب والشكوك ، والطمأنينة التى لايعكرها القلق والتوقع . وماأروح الحياة فى مجتمع بريء من الظنون !

ولكن الأمر لايقف فى الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضىء فى تربية الضمائر والقلوب . بل إن هذا النص يقيم مبدأ فى التعامل ، وسياجا حول حقوق الناس الذين يعيشون فى مجتمعه النظيف ، فلايؤخذون بظنة ، ولايحاكمون بريبة ؛ ولايصبح الظن أساسا لمحاكمتهم . بل لايصح أن يكون أساسا للتحقيق معهم ، ولاللتحقيق حولهم . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إذا ظننت فلا تحقق » [1] .. ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء ، مصونة حقوقهم ،وحرياتهم، واعتبارهم . حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا مايؤاخذون عليه.ولايكفى الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذى دار حولهم !

فأى مدى من صيانة كرامة الناس وحرياتهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهى إليه هذا النص ! وأين أقصى ماتتماجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا

---

(١) أخرجه الطبرانى باسناده عن حارثة ابن النعمان .

للدى الذى هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا ، وقام عليه المجتمع الإسلامى فعلا ، وحققه فى واقع الحياة ، بعد أن حققه فى واقع الضمير ؟

ثم يستطرد فى ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتناب الظنون :

« ولا تجسسوا » . .

والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن؛ وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات، والاطلاع على السوءات .

والقرآن يقاوم هذا العمل الدنىء من الناحية الأخلاقية، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوآتهم. وتمشيا مع أهدافه فى نظافة الأخلاق والقلوب.

ولكن الأمر أبعد من هذا أثرا . فهو مبدأ من مبادىء الإسلام الرئيسية فى نظامه الاجتماعى ، وفى إجراءاته التشريعية والتنفيذية .

إن للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التى لا يجوز أن تنتهك فى صورة من الصور ، ولا أن تمس بحال من الأحوال .

ففى المجتمع الإسلامى الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم ، آمنين على بيوتهم ، آمنين على أسرارهم ، آمنين على عوراتهم . ولا يوجد مبرر — مهما يكن — لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات . حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح فى النظام الإسلامى ذريعة للتجسس على الناس . فالناس على ظواهرهم ، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم . وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم . وليس لأحد أن يظن أو يتوقع ، أو حتى يعرف أنهم يزاولون فى الخفاء مخالفة ما ، فيتجسس عليهم ليضبطهم ! وكل ماله عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها ، مع الضمانات الأخرى التى ينص عليها بالنسبة لكل جريمة .

قال أبو داود : حدثنا أبو بكر ابن أبى شيبة ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن زيد ابن وهب ، قال : أتى ابن مسعود ، فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرا . فقال عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به .

وعن مجاهد : لا تجسسوا ، خذوا بما ظهر لكم ، ودعوا ماستر الله .

وروى الإمام أحمد — باسناده — عن دجين كاتب عقبة . قال : قلت لعقبة : إن لنا جيرانا

يشربون الخمر ، وأنا داع لهم الشرط ، فيأخذونهم . قال : لا تفعل ولكن عظهم وتهددهم . قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إنى قد نهيتهم فلم ينتهوا . وإنى داع لهم الشرط فتأخذهم . فقال له عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإنى سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها » (١)

وقال سفيان الثورى ، عن راشد ابن سعد ، عن معاوية ابن أبى سفيان ، قال: سمعت النبى — صلى الله عليه وسلم يقول: « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » . فقال أبو الدرداء — رضى الله عنه — كلمة سمعها معاوية — رضى الله عنه — من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نفعه الله تعالى بها (٢) .

فهكذا أخذ النص طريقه فى النظام العملى للمجتمع الإسلامى ! ولم يعد مجرد تهذيب للضمير وتنظيف للقلب ، بل صار سياجا حول حرمات الناس وحقوقهم وحرياتهم ، فلا تمس من قريب أو بعيد ، تحت أى ذريعة أو ستار .

فأين هذا المدى البعيد ؟ وأين هذا الأفق السامق ؟ وأين ما يتعاجب به أشد الأمم ديمقراطية وحرية وحفظا لحقوق الإنسان بعد ألف وأربع مئة عام ؟

بعد ذلك يجىء النهى عن الغيبة فى تعبير عجيب ، يبدعه القرآن إبداعا :

« ولا يغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه » .

لا يغتب بعضكم بعضا . ثم يعرض مشهدا تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية . مشهد الأخ يأكل لحم أخيه . . ميتا . . ! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز . وأنهم إذن كرهوا الاغتياب !

ثم يعقب على كل مانهاهم عنه فى الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى ، والتلويح لمن اقترف من هذا شيئا أن يبادر بالتوبة تطلعا للرحمة :

« واتقوا الله إن الله تواب رحيم » . .

ويسرى هذا النص فى حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس ، وإلى أدب عميق فى النفوس والقلوب . ويتشدد فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — متمشيا مع الأسلوب القرآنى العجيب فى إثارة الاشمئزاز والفزع من شبح الغيبة البغيض.

---

(١) رواه أبو داود والنسائى من حديث الليث ابن سعيد .

(٢) رواه أبو داود منفردا به من حديث الثورى .

فى حديث رواه أبو داود : حدثنا القعنبي ، حدثنا عبد العزيز ابن محمد ، عن العلاء ،عن أبيه ، عن أبى هريرة قال:قيل : يارسول الله ، ماالغيبة ؟ قال –صلى اللهعليهوسلم – : « ذكرك أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ماأقول ؟ قال – صلى الله عليه وسلم – : « إن كان فيهماتقول فقد اغتبته، وإنلم يكن فيه ماتقول فقد بهته »..ورواه الترمذى وصححه.

وقال أبو داود : حدثنا مسدد ، حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثنى على ابن الأقمر عن أبى حذيفة ، عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : قلت للنبى – صلى الله عليه وسلم – : حسبك من صفية كذا وكذا (قال عن مسدد تعنى قصيرة) فقال – صلى الله عليه وسلم – : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » . قالت : وحكيت له إنسانا . فقال – صلى الله عليه وسلم – : « ما أحب أنى حكيت إنسانا وأن لى كذا وكذا » . .

وروى أبو داود بإسناده عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: « لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم . قلت : من هؤلاء ياجبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم » . .

ولما اعترف ماعز بالزنا هو والغامدية ، ورجمهما رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد إقرارهما متطوعين وإلحاحهما عليه فى تطهيرهما ، سمع النبى – صلى الله عليه وسلم – رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب! ثم سار النبى – صلى الله عليه وسلم – حتى مر بجيفة حمار ، فقال : « أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار » . قالا : غفر الله لك يارسول الله ! وهل يؤكل هذا ؟ قال –صلى الله عليه وسلم – : « فما نلتما من أخيكما آنفا أشد أكلا منه . والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها »[1]

وبمثل هذا العلاج الثابت المطرد تطهر المجتمع الإسلامى وارتفع ، وانتهى إلى ماصار إليه : حلما يمشى على الأرض ، ومثلا يتحقق فى واقع التاريخ .

***

وبعد هذه النداءات المتكررة للذين آمنوا ؛ وأخذهم إلى ذلك الأفق السامى الوضىء من الآداب النفسية والاجتماعية ؛ وإقامة تلك السياجات القوية من الضمانات حول كرامتهم

(١) رواه ابن كثير فى التفسير وقال : إسناده صحيح .

وحريتهم وحرماتهم ، وضمان هذا كله بتلك الحساسية التى يثيرها فى أرواحهم ، بالتطلع إلى الله، وتقواه ..

بعد هذه المدارج إلى ذلك الأفق السامق ، يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها ، ليردها إلى أصل واحد ، وإلى ميزان واحد ، هو الذى تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق :

« ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى،وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير » ..

ياأيها الناس . ياأيها المختلفون أجناسا وألوانا ، المتفرقون شعوبا وقبائل . إنكم من أصل واحد . فلا تختلفوا ولاتتفرقوا ولاتتخاصموا ولاتذهبوا بددا .

ياأيها الناس . والذى يناديكم هذا النداء هو الذى خلقكم . . من ذكر وأنثى . . وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل . إنها ليست التناحر والخصام . إنما هى التعارف والوئام . فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوع لايقتضى النزاع والشقاق ، بل يقتضى التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات. وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعانى من حساب فى ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . . والكريم حقا هو الكريم عند الله . وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين : « إن الله عليم خبير » ..

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر فى الميزان .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات فى الأرض ؛ وترخص جميع القيم التى يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى فى ظل الله . وهذا هو اللواء الذى رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت . وكلها من الجاهلية وإليها ، تتزيا بشتى الأزياء ، وتسمى بشتى الأسماء . وكلها جاهلية عارية من الإسلام !

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية فى كل صورها وأشكالها، ليقيم نظامه الإنسانى العالمى فى ظل راية واحدة : راية الله . . لاراية الوطنية . ولا راية القومية . ولا راية البيت. ولا راية الجنس . فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام .

قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب. ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان »(١)

وقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن العصبية الجاهلية : « دعوها فإنها منتنة »(٢)

وهذه هى القاعدة التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى . المجتمع الإنسانى العالمى ، الذى تحاول البشرية فى خيالها المحلق أن تحقق لونا من ألوانه فتخفق ، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم . . الطريق إلى الله . . ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة . . راية الله . .

* * *

وفى ختام السورة تأتى المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمته ، فى الرد على الأعراب الذين قالوا : « آمنا » وهم لا يدركون حقيقة الإيمان . والذين منوا على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنهم أسلموا وهم لا يقدرون منة الله على عباده بالإيمان :

« قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا . ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئا ؛ إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل : أتعلمون الله بدينكم ؟ والله يعلم مافى السماوات ومافى الأرض ، والله بكل شىء عليم . يمنون عليك أن أسلموا . قل : لاتمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السماوات والأرض ، والله بصير بما تعملون » . .

قيل : إنها نزلت فى أعراب بنى أسد . قالوا : آمنا . أول مادخلوا فى الإسلام . ومنوا على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قالوا : يارسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك .

---

(١) رواه أبو بكر البزار فى مسنده من حديث حذيفة

(٢) رواه مسلم فى صحيحه من حديث جابر ابن عبد الله .

فأراد الله أن يعلمهم حقيقة ماهو قائم فى نفوسهم وهم يقولون هذا القول . وأنهم دخلوا فى الإسلام استسلاما ، ولم تصل قلوبهم بعد إلى مرتبة الإيمان . فدل بهذا على أن حقيقة الإيمان لم تستقر فى قلوبهم . ولم تشربها أرواحهم : « قل : لم تؤمنوا . ولـكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان فى قلوبـكم » .

ومع هذا فإن كرم الله اقتضى أن يجزيهم على كل عمل صالح يصدر منهم لا ينقصهم منه شيئا. فهذا الإسلام الظاهر الذى لم يخالط القلب فيستحيل إيمانا واثقا مطمئنا . هذا الإسلام يكفى لتحسب لهم أعمالهم الصالحة فلا تضيع كما تضيع أعمال الـكفار . ولاينقص من أجرها شىءعند الله ما بقوا على الطاعة والاستسلام : « وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالـكم شيئا » . ذلك أن الله أقرب إلى المغفرة والرحمة ، فيقبل من العبد أول خطوة ، ويرضى منه الطاعة والتسليم ، إلى أن يستشعر قلبه الإيمان والطمأنينة : « إن الله غفور رحيم » ..

ثم بين لهم حقيقة الإيمان :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله . ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . أولئك هم الصادقون » .

فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله . التصديق الذى لايرد عليـه شك ولاارتياب . التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذى لايتزعزع ولايضطرب ، ولاتهجس فيه الهواجس ، ولايتلجلج فيه القلب والشعور . والذى ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله . فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه ، لابد مندفع لتحقيق حقيقته فى خارج القلب . فى واقع الحياة . فى دنيا الناس . يريد أن يوحد بين مايستشعره فى باطنه من حقيقة الإيمان ، ومايحيط به فى ظاهره من ماجريات الأمور وواقع الحياة. ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التى فى حسه ، والصورة الواقعية من حوله . لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه فى كل لحظة . ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس . فهو انطلاق ذاتى من نفس المؤمن . يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التى فى قلبه ، ليراها ممثلة فى واقع الحياة والناس . والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيمانى ، وواقعه العملى . وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيمانى الـكامل الجميل المستقيم فى سبيل واقعه العملى الناقص الشائن

المنحرف . فلابد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله ، حتى تنثنى هذه الجاهلية إلى التصور الإيمانى والحياة الإيمانية .

« أولئك هم الصادقون » . . الصادقون فى عقيدتهم . الصادقون حين يقولون : إنهم مؤمنون . فإذا لم تتحقق تلك المشاعر فى القلب ، ولم تتحقق آثارها فى واقع الحياة ، فالإيمان لا يتحقق . والصدق فى العقيدة وفى ادعائها لا يكون .

ونقف قليلا أمام هذا الاحتراس المعترض فى الآية : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ـ ثم لم يرتابوا ـ » . . إنه ليس مجرد عبارة . إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية . وعلاج لحالة تقوم فى النفس . حتى بعد إيمانها . . « ثم لم يرتابوا » وشبيه بها الاحتراس فى قوله تعالى . . « إن الذين قالوا ربنا الله . . ثم استقاموا . . » فعدم الارتياب . والاستقامة على قولة : ربنا الله . تشير إلى ما قد يعتور النفس المؤمنة ـ تحت تأثير التجارب القاسية ، والابتلاءات الشديدة ـ من ارتياب ومن اضطراب . وإن النفس المؤمنة لتصطدم فى الحياة بشدائد تزلزل ، ونوازل تزعزع . والتى تثبت فلا تضطرب ، وتثق فلا ترتاب ، وتظل مستقيمة موصولة هى التى تستحق هذه الدرجة عند الله .

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق ، وأخطار الرحلة ، لتعزم أمرها ، وتحتسب ، وتستقيم ، ولا ترتاب عندما يدلهم الأفق ، ويظلم الجو ، وتناوحها العواصف والرياح !

ثم يستطرد مع الأعراب يعلمهم أن الله أعلم بقلوبهم وما فيها ؛ وأنه هو يخبرهم بما فيها ولا يتلقى منهم العلم عنها :

« قل : أتعلمون الله بدينكم ؟ والله يعلم مافى السماوات ومافى الأرض ، والله بكل شىء عليم » . .

والإنسان يدعى العلم ، وهو لا يعلم نفسه ، ولا ما يستقر فيها من مشاعر ، ولا يدرك حقيقة نفسه ولا حقيقة مشاعره ؛ فالعقل نفسه لا يعرف كيف يعمل ، لأنه لا يملك مراقبة نفسه فى أثناء عمله . وحين يراقب نفسه يكف عن عمله الطبيعى ، فلا يبقى هناك ما يراقبه ! وحين يعمل عمله الطبيعى لا يملك أن يشغل فى الوقت ذاته بالمراقبة ! ومن ثم فهو عاجز عن معرفة خاصة ذاته وعن معرفة طريقة عمله ! وهو هو الأداة التى يتطاول بها الإنسان !

« والله يعلم مافى السماوات ومافى الأرض » . . علما حقيقيا . لا بظواهرها وآثارها . ولـكن بحقائقها وماهياتها . وعلما شاملا محيطا غير محدود ولا موقوت .

« والله بكل شيء عليم » . . بهذا الإجمال الشامل المحيط .

وبعد بيان حقيقة الإيمان التى لم يدركوها ولم يبلغوها ، يتوجه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخطاب عن منهم عليه بالإسلام ؛ وهذا المن ذاته دليل على أن حقيقة الإيمان لم تـكن قد استقرت بعد فى تلك القلوب، وأن حلاوة الإيمان لم تـكن بعدقد تذوقتها تلك الأرواح:

« يمنون عليك أن أسلموا . قل : لا تمنوا على إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ، إن كنتم صادقين » . .

لقد منوا بالإسلام ، وزعموا الإيمان . فجاءهم الرد أن لا يمنوا بالإسلام . وأن المنة لله عليهم لو صدقوا فى دعوى الإيمان .

ونحن نقف أمام هذا الرد ، الذى يتضمن حقيقة ضخمة ، يغفل عنها الـكثيرون ، وقد يغفل عنها بعض المؤمنين . .

إن الإيمان هو كبرى المنن التى ينعم بها الله على عبد من عباده فى الأرض . إنه أكبر من منة الوجود الذى يمنحه الله ابتداء لهذا العبد ؛ وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع .

إنها المنة التى تجعل للوجود الإنسانى حقيقة مميزة ؛ وتجعل له فى نظام الـكون دورا أصيلا عظيما.

وأول ما يصنعه الإيمان فى الـكائن البشرى ، حين تستقر حقيقته فى قلبه ، هو سعة تصوره لهذا الوجود ، ولارتباطاته هو به ، ولدوره هو فيه ؛ وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله ؛ وطمأنينته فى رحلته على هذا الـكوكب الأرضى حتى يلقى الله ، وأنسه بكل ما فى الوجود حوله ، وأنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود ؛ وشعوره بقيمته وكرامته ؛ وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يرضى عنه الله ، ويحقق الخير لهذا الوجود كله بكل مافيه وكل من فيه .

فمن سعة تصوره أن يخرج من نطاق ذاته المحدودة فى الزمان والمـكان ، الصغيرة الـكيان ، الضئيلة القوة . إلى محيط هذا الوجود كله ، بما فيه من قوى مذخورة ، وأسرار مكنونة ؛ وانطلاق لا تقف دونه حدود ولا قيود . فى نهاية المطاف .

فهو ، بالقياس إلى جنسه ، فرد من إنسانية،ترجع إلى أصل واحد . هذا الأصل اكتسب إنسانيته ابتداء من روح الله . من النفخة العلوية التي تصل هذا الكائن الطيني بالنور الإلهي . النور الطليق الذي لاتحصره سماء ولاأرض ولابدء ولاانتهاء . فلاحد له في المكان ، ولاحد له في الزمان . وهذا العنصر الطليق هو الذي جعل من المخلوق البشري هذا الإنسان . . ويكفي أن يستقر هذا التصور في قلب إنسان ليرفعه في نظر نفسه ، وليكرمه في حسه ، وليشعره بالوضاءة والانطلاق ؛ وقدماه تدبان على الأرض ، وقلبه يرف بأجنحة النور إلى مصدر النور الأول الذي منحه هذا اللون من الحياة .

وهو ، بالقياس إلى الفئة التي ينتسب إليها ، فرد من الأمة المؤمنة .الأمة الواحدة ، الممتدة في شعاب الزمن ، السائرة في موكب كريم ، يقوده نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من النبيين ، صلوات الله عليهم أجمعين..ويكفي أن يستقر هذا التصور في قلب إنسان، فيشعر أنه فرع من تلك الشجرة الطيبة الباسقة المتطاولة ، العميقة الجذور ، الممتدة الفروع ، المتصلة بالسماء في عمرها المديد . . يكفي أن يشعر الإنسان هذا الشعور ليجد للحياة طعما آخر ؛ وليحس بالحياة إحساسا جديدا ، وليضيف إلى حياته هذه حياة كريمة ، مستمدة من هذا النسب العريق .

ثم يتسع تصوره ويتسع حتى يتجاوز ذاته وأمته وجنسه الإنساني ؛ ويرى هذا الوجود كله. الوجود الصادر عن الله ، الذي عنه صدر ، ومن نفخة روحه صار إنسانا . ويعرفه إيمانه أن هذا الوجود كله كائن حي ، مؤلف من كائنات حية . وأن لكل شيء فيه روحا ، وأن لهذا الكون كله روحا . وأن أرواح الأشياء ، وروح هذا الكون الكبير ، تتوجه إلى بارئها الأعلى — كما تتوجه روحه هو — بالدعاء والتسبيح ؛ وتستجيب له بالحمد والطاعة ، وتنتهي إليه بالإذعان والاستسلام . فإذا هو في كيان هذا الكون ، جزء من كل،لاينفصل ولاينعزل .صادر عن بارئه ، متجه إليه بروحه ، راجع في النهاية إليه . وإذا هو أكبر من ذاته المحدودة . أكبر بقدر تصوره لضخامة هذا الوجود الهائل.وإذا هو مأنوس بكل ماحوله من أرواح. ومأنوس بعد ذلك كله بروح الله التي ترعاه . وعندئذ يشعر أنه يملك أن يتصل بهذا الوجود كله ، وأن يمتد طولا وعرضا فيه ؛ وأنه يملك أن يصنع أشياء كثيرة ، وأن ينشيء أحداثا ضخمة ، وأن يؤثر بكل شيء ويتأثر .ثم يملك أن يستمد مباشرة من تلك القوة الكبرى التي برأته وبرأت كل مافي الوجود من قوى وطاقات . القوة الكبرى التي لا تنحسر ولاتضعف ولاتعيب .

ومن هذا التصور الواسع الرحيب يستمد موازين جديدة حقيقية للأشياء والأحداث والأشخاص والقيم والاهتمامات والغايات . ويرى دوره الحقيقى فى هذا الوجود ، ومهمته الحقيقية فى هذه الحياة . بوصفه قدرا من أقدار الله فى الكون ، يوجهه ليحقق به ويحقق فيه مايشاء . ويمضى فى رحلته على هذا الكوكب، ثابت الخطو، مكشوف البصيرة، مأنوس الضمير.

ومن هذه المعرفة لحقيقة الوجود حوله ، ولحقيقة الدور المقسوم له ، ولحقيقة الطاقة المهيأة له للقيام بهذا الدور . من هذه المعرفة يستمد الطمأنينة والسكينة والارتياح لما يجرى حوله ، ولما يقع له . فهو يعرف من أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب ؟ وماذا هو واجد هناك؟ وقد علم أنه هنا لأمر ، وأن كل مايقع له مقدر لتمام هذا الأمر. وعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأنه مجزى على الصغيرة والكبيرة ، وأنه لم يخلق عبثا ، ولن يترك سدى ، ولن يمضى مفردا ..

ومن هذه المعرفة تختفى مشاعر القلق والشك والحيرة الناشئة عن عدم معرفة للنشأ والمصير ؛ وعدم رؤية المطوى من الطريق ، وعدم الثقة بالحكمة التى تكمن وراء مجيئه وذهابه ، ووراء رحلته فى ذلك الطريق .

يختفى شعور كشعور الخيام الذى يعبر عنه بما ترجمته :

لبست ثوب العمر لم أستشر   وحرت فيه بين شتى الفكر

وسوف أنضو الثوب عنى ولم   أدر لماذا جئت أين المقر ؟

فالمؤمن يعرف ــ بقلب مطمئن ، وضمير مستريح ، وروح مستبشرة ــ أنه يلبس ثوب العمر بقدر الله الذى يصرف الوجود كله تصريف الحكيم الخبير . وأن اليد التى ألبسته إياه أحكم منه وأرحم به ، فلا ضرورة لاستشارته لأنه لم يكن ليشير كما يشير صاحب هذه اليد العليم البصير. وأنه يلبسه لأداء دور معين فى هذا الكون ، يتأثر بكل مافيه ، ويؤثر فى كل مافيه. وأن هذا الدور يتناسق مع جميع الأدوار التى يقوم بها كل كائن من الأشياء والأحياء منذ البدء حتى المصير .

وهو يعلم إذن لماذا جاء ، كما أنه يعرف أين المقر ، ولا يحار بين شتى الفكر ، بل يقطع الرحلة ويؤدى الدور فى طمأنينة وفى ثقة وفى يقين. وقد يرتقى فى المعرفة الإيمانية ، فيقطع الرحلة ويؤدى الدور فى فرح وانطلاق واستبشار ، شاعرا بجمال الهبة وجلال العطية . هبة العمر ــ أو الثوب ــ الممنوح له من يد الكريم المنان ، الجميل اللطيف ، الودود الرحيم . وهبة الدور الذى يؤديه ــ كائنا ما كان من المشقة ــ لينتهى به إلى ربه فى اشتياق حبيب !

ويختفي شعور كالشعور الذي عشته في فترة من فترات الضياع والقلق ، قبل أن أحيا في ظلال القرآن ، وقبل أن يأخذ الله بيدي إلى ظله الكريم . ذلك الشعور الذي خلعته روحي المتعبة على الكون كله ، فعبرت عنه أقول :

وقف الكون حائراً أين يمضي ؟ ولماذا وكيف — لو شاء — يمضي ؟
عبث ضائع وجهد غبين ومصير مقنع ليس يُرضي

فأنا أعرف اليوم — ولله الحمد والمنة — أنه ليس هناك جهد غبين فكل جهد مجزى . وليس هناك تعب ضائع فكل تعب مثمر . وأن المصير مرض وأنه بين يدي عادل رحيم . وأنا أشعر اليوم — ولله الحمد والمنة — أن الكون لا يقف تلك الوقفة البائسة أبداً ؛ فروح الكون تؤمن بربها ، وتتجه إليه ، وتسبح بحمده . والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له ، في طاعة وفي رضى وفي تسليم !

وهذا كسب ضخم في عالم الشعور وعالم التفكير ، كما أنه كسب ضخم في عالم الجسد والأعصاب ، فوق ما هو كسب ضخم في جمال العمل والنشاط والتأثر والتأثير .

والإيمان — بعد — قوة دافعة وطاقة مجمعة . فما تكاد حقيقته تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل ، ولتحقق ذاتها في الواقع ، ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة . كما أنها تستولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كلها ، وتدفعها في الطريق . .

« ذلك سر قوة العقيدة في النفس ، وسر قوة النفس بالعقيدة . سر تلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض وما تزال في كل يوم تصنعها . الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم ، وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الكبرى التي لا تفنى ؛ وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان وقوى المال وقوى الحديد والنار ، فإذا هي كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن . وما هو الفرد الفاني المحدود الذي هزم تلك القوى جميعاً ، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح ، والينبوع المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف »[1]

« تلك الخوارق التي تأتي بها العقيدة الدينية في حياة الأفراد وفي حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة ، ولا تعتمد على التهاويل والرؤى . إنها تقوم على أسباب مدركة وعلى قواعد

---

(١) مقتطفات من فصل : « العقيدة والحياة » في كتاب : « السلام العالمي والإسلام » .

ثابتة . إن العقيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخفية ، وتثبت روحه بالثقة والطمأنينة ، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة ، بقوة اليقين فى النصر ، وقوة الثقة فى الله . وهى تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء ، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه ، وتجمع طاقاته وقواه كلها ، وتدفعها فى اتجاه . ومن هنا كذلك قوتها . قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد ، وتوجيهها فى اتجاه واحد ، تمضى إليه مستنيرة الهدف ، فى قوة ، وفى ثقة ، وفى يقين »[١]

ويضاعف قوتها أنها تمضى مع الخط الثابت الذى يمضى فيه الكون كله ظاهره وخافيه . وأن كل مافى الكون من قوى مكنونة تتجه اتجاها إيمانيا ، فيلتقى بها المؤمن فى طريقه ، وينضم إلى زحفها الهائل لتغليب الحق على الباطل . مهما يكن للباطل من قوة ظاهرة لها فى العيون بريق !

وصدق الله العظيم : « يمنون عليك أن أسلموا. قل: لاتمنوا على إسلامكم. بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ». فهى المنة الكبرى التى لايملكها ولايهبها إلا الله الكريم، لمن يعلم منه أنه يستحق هذا الفضل العظيم .

وصدق الله العظيم. فماذا فقد من وجد الأنس بتلك الحقائق والمدركات وتلك المعانى والمشاعر؟ وعاش بها ومعها ، وقطع رحلته على هذا الكوكب فى ظلالها وعلى هداها ؟ وماذا وجد من فقدها ولو تقلب فى أعطاف النعيم . وهو يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام . والأنعام أهدى لأنها تعرف بفطرتها الإيمان ؛ وتهتدى به إلى بارئها الكريم ؟

« إن الله يعلم غيب السماوات والأرض ، والله بصير بما تعملون » ..

والذى يعلم غيب السماوات والأرض يعلم غيب النفوس، ومكنون الضمائر، وحقائق الشعور. ويبصر مايعمله الناس، فلايستمد علمه بهم من كلمات تقولها ألسنتهم ؛ ولكن من مشاعر تجيش فى قلوبهم ، وأعمال تصدق مايجيش فى القلوب ..

* * *

وبعد فهذه هى السورة الجليلة ، التى تكاد بآياتها الثمانية عشرة تستقل برسم معالم عالم كريم نظيف رفيع سليم . بينما هى تكشف كبريات الحقائق ، وتقرر أصولها فى أعماق الضمير ..

---

(١) المصدر السابق

سورة ق مكية

وآياتها ٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« قٓ وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ : هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ؟ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ؟ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ، كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ .

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ؛ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ ، وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ *

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا ، فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ، فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ : هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ، فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ : رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ، وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ : لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ : هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ؟ وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ * وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ .

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي ٱلْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ * وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ، ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » . .

كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يخطب بهذه السورة فى العيد والجمعة ؛ فيجعلها هى موضوع خطبته ومادتها ، فى الجماعات الحافلة .. وإن لها لشأنا ..

إنها سورة رهيبة ، شديدة الوقع بحقائقها ، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيرى ، وصورها

وظلالها وجرس فواصلها . تأخذ على النفس أقطارها ، وتلاحقها فى خطراتها وحركاتها ، وتتعقبها فى سرها وجهرها،وفى باطنها وظاهرها . تتعقبها برقابة الله،التى لاتدعها لحظة واحدة من المولد ، إلى الممات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب.وهى رقابة شديدة دقيقة رهيبة. تطبق على هذا المخلوق الإنسانى الضعيف إطباقا كاملا شاملا . فهو فى القبضة التى لاتغفل عنه أبدا ، ولاتغفل من أمره دقيقا ولاجليلا ، ولاتفارقه كثيرا ولاقليلا . كل نفس معدود . وكل هاجسة معلومة . وكل لفظ مكتوب. وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب، كما هى مضروبةعلى حركة الجوارح . ولاحجاب ولاستار دون هذه الرقابة النافذة ، المطلعة على السر والنجوىاطلاعها علىالعمل والحركة . فى كل وقت وفى كل حال .

وكل هذه حقائق معلومة . ولكنها تعرض فى الأسلوب الذى يبديها وكأنها جديدة ،تروع الحس روعة المفاجأة ؛ وتهز النفس هزا ، وترجها رجا ، وتثير فيها رعشة الخوف ، وروعة الإعجاب ، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب !

وذلك كله إلى صور الحياة ، وصور الموت ، وصور البلى ، وصور البعث ،وصور الحشر. وإلى إرهاص الساعة فى النفس وتوقعها فى الحس . وإلى الحقائق الكونية المتجلية فى السماء والأرض ، وفى الماء والنبت ، وفى الثمر والطلع .. « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » ..

وإنه ليصعب فى مثل هذه السورة التلخيص والتعريف ، وحكاية الحقائق والمعانى والصور والظلال ، فى غير أسلوبها القرآنى الذى وردت فيه ؛ وفى غير عبارتهاالقرآنية التى تشع بذاتها تلك الحقائق والمعانى والصور والظلال ، إشعاعا مباشرا للحس والضمير .

فلنأخذ فى استعراض السورة بذاتها .. والله المستعان ..

***

« ق .والقرآن المجيد.بل عجبوا أن جاءهممنذر منهم ، فقال الكافرون : هذا شيء عجيب. أإذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد . قد علمنا ماتنقص الأرض منهم، وعندنا كتاب حفيظ. بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم فى أمر مريج . أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ؟ ومالها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنابه جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج.

« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد . أفعيينا بالخلق الأول ؟ بل هم فى لبس من خلق جديد » ..

* * *

هذا هو المقطع الأول فى السورة . وهو يعالج قضية البعث ، وإنكار المشركين له ، وعجبهم من ذكره والقول به . ولكن القرآن لا يواجه إنكارهم لهذه القضية فيعالجه وحده . إنما هو يواجه قلوبهم المنحرفة ليردها أصلا إلى الحق ، ويقوم ما فيها من عوج ؟ ويحاول قبل كل شىء إيقاظ هذه القلوب وهزها لتتفتح على الحقائق الكبيرة فى صلب هذا الوجود . ومن ثم لا يدخل معهم فى جدل ذهنى لإثبات البعث . وإنما يحيي قلوبهم لتتفكر هى وتتدبر ، ويلمس وجدانهم ليتأثر بالحقائق المباشرة من حوله فيستجيب . . وهو درس يحسن أن ينتفع به من يحاولون علاج القلوب !

وتبدأ السورة بالقسم . القسم بالحرف : « قاف » وبالقرآن المجيد ، المؤلف من مثل هذا الحرف . بل إنه هو أول حرف فى لفظ « قرآن » . .

ولا يذكر المقسم عليه . فهو قسم فى ابتداء الكلام ، يوحى بذاته باليقظة والاهتمام . فالأمر جلل ، والله يبدأ الحديث بالقسم ، فهو أمر إذن له خطر . ولعل هذا هو المقصود بهذا الابتداء . إذ يضرب بعده بحرف « بل » عن المقسم عليه ـ بعد أن أحدث القسم أثره فى الحس والقلب ـ ليبدأ حديثا كأنه جديد عن عجبهم واستنكارهم لما جاءهم به رسولهم فى القرآن المجيد من أمر البعث والخروج :

« بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون : هذا شىء عجيب . أإذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد » . .

بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم . ومافى هذا من عجب . بل هو الأمر الطبيعى الذى تتقبله الفطرة السليمة ببساطة وترحيب . الأمر الطبيعى أن يختار الله من الناس واحدا منهم ، يحس بإحساسهم ، ويشعر بشعورهم ، ويتكلم بلغتهم ، ويشاركهم حياتهم ونشاطهم ، ويدرك دوافعهم وجواذبهم ، ويعرف طاقتهم واحتمالهم ، فيرسله إليهم لينذرهم ما ينتظرهم إن هم ظلوا فيما هم فيه ؛ ويعلمهم كيف يتجهون الاتجاه الصحيح ؛ ويبلغهم التكاليف التى يفرضها الاتجاه الجديد ، وهو معهم أول من يحمل هذه التكاليف .

ولقد عجبوا من الرسالة ذاتها ، وعجبوا ـ بصفة خاصة ـ من أمر البعث الذى حدثهم عنه هذا النذر أول ما حدثهم . فقضية البعث قاعدة أساسية فى العقيدة الإسلامية . قاعدة تقوم عليها العقيدة ويقوم عليها التصور الكلى لمقتضيات هذه العقيدة . فالمسلم مطلوب منه أن يقوم على الحق ليدفع الباطل ، وأن ينهض بالخير ليقضى على الشر ، وأن يجعل نشاطه كله فى الأرض عبادة لله ، بالتوجه فى هذا النشاط كله لله . ولا بد من جزاء على العمل . وهذا الجزاء قد لا يتم فى رحلة الأرض . فيؤجل للحساب الختامى بعد نهاية الرحلة كلها . فلا بد إذن من عالم آخر ، ولا بد إذن من بعث للحساب فى العالم الآخر . . وحين ينهار أساس الآخرة فى النفس ينهار معه كل تصور لحقيقة هذه العقيدة وتكاليفها ؛ ولا تستقيم هذه النفس على طريق الإسلام أبدا .

ولكن أولئك القوم لم ينظروا للمسألة من هذا الجانب أصلا . إنما نظروا إليها من جانب آخر ساذج شديد السذاجة ، بعيد كل البعد عن إدراك حقيقة الحياة والموت ، وعن إدراك أى طرف من حقيقة قدرة الله . فقالوا : « أإذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد » !

والمسألة إذن فى نظرهم هى مسألة استبعاد الحياة بعد الموت والبلى . وهى نظرة ساذجة كما أسلفنا ، لأن معجزة الحياة التى حدثت مرة يمكن أن تحدث مرة أخرى . كما أن هذه المعجزة تقع أمامهم فى كل لحظة ، وتحيط بهم فى جنبات الكون كله . وهذا هو الجانب الذى قادهم إليه القرآن فى هذه السورة .

غير أننا قبل أن نمضى مع لمسات القرآن وآياته الكونية فى معرض الحياة ، نقف أمام لمسة البلى والدثور التى تتمثل فى حكاية قولهم والتعليق عليه :

« أإذا متنا وكنا ترابا . . . ؟ » . . وإذن فالناس يموتون . وإذن فهم يصيرون ترابا . وكل من يقرأ حكاية قول المشركين يلتفت مباشرة إلى ذات نفسه ، وإلى غيره من الأحياء حوله. يلتفت ليتصور الموت والبلى والدثور . بل ليحس دبيب البلى فى جسده وهو بعد حى فوق التراب ! وما كالموت يهز قلب الحى ، وليس كالبلى يمسه بالرجفة والارتعاش .

والتعقيب يعمق هذه اللمسة ويقوى وقعها ؛ وهو يصور الأرض تأكل منهم شيئا فشيئا :

« قد علمنا ماتنقص الأرض منهم ، وعندنا كتاب حفيظ » . .

لكأنما التعبير يجسم حركة الأرض ويحييها وهى تذيب أجسادهم المغيبة فيها ، وتأكلها رويدا

رويدا . ويصور أجسادهم وهى تتآكل باطراد وتبلى. ليقول : إن الله يعلم ماتأكله الأرض من أجسادهم ، وهو مسجل فى كتاب حفيظ ؛ فهم لايذهبون ضياعا إذا ماتوا وكانوا ترابا . أما إعادة الحياة إلى هذا التراب ، فقد حدثت من قبل ، وهى تحدث من حولهم فى عمليات الإحياء المتجددة التى لاتنتهى .

وهكذا تتوالى اللمسات التى تذيب القلوب وترققها ، وتدعها حساسة متوفزة جيدة الاستقبال. وذلك قبل البدء فى الهجوم على القضية ذاتها !

ثم يكشف عن حقيقة حالهم التى تنبعث منها تلك الاعتراضات الواهية . ذلك أنهم تركوا الحق الثابت ، فمادت الأرض من تحتهم ، ولم يعودوا يستقرون على شىء أبدا :

« بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم فى أمر مريج » . .

وإنه لتعبير فريد مصور مشخص لحال من يفارقون الحق الثابت ، فلا يقر لهم من بعده قرار . .

إن الحق هو النقطة الثابتة التى يقف عليها من يؤمن بالحق فلا تتزعزع قدماه، ولا تضطرب خطاه ، لأن الأرض ثابتة تحت قدميه لاتتزلزل ولاتخسف ولاتغوص . وكل ماحوله ـ عدا الحق الثابت ـ مضطرب مائج مزعزع مريج ، لاثبات له ولااستقرار ، ولاصلابة له ولااحتمال . فمن تجاوز نقطة الحق الثابتة زلت قدماه فى ذلك المضطرب المريج ، وفقد الثبات والاستقرار ، والطمأنينة والقرار . فهو أبدا فى أمر مريج لايستقر على حال !

ومن يفارق الحق تتقاذفه الأهواء ، وتتناوحه الهواجس ، وتتخاطفه الهواتف ، وتمزقه الحيرة ، وتقلقه الشكوك. ويضطرب سعيه هنا وهناك ، وتتأرجح مواقفه إلى اليمين وإلى الشمال. وهو لايلوذ من حيرته بركن ركين ، ولا بملجأ أمين .. فهو فى أمر مريج ..

إنه تعبير عجيب ، يجسم خلجات القلوب ، وكأنها حركة تتبعها العيون !

واستطرادا مع إيقاع الحق الثابت المستقر الراسى الشامخ ـ وفى الطريق إلى مناقشة اعتراضهم على حقيقة البعث ـ يعرض بعض مظاهر الحق فى بناء الكون ؛ فيوجه أنظارهم إلى السماء وإلى الأرض وإلى الرواسى ، وإلى الماء النازل من السماء ، وإلى النخل الباسقات ، وإلى الجنات والنبات . فى تعبير يتناسق مع صفة الحق الثابت الراسى . . الجميل . .

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ؟ ومالها من فروج » . .

إن هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذى فارقوه . أفلم ينظروا إلى مافيها من تشامخ وثبات واستقرار ؟ وإلى مافيها بعد ذلك من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب ! إن الثبات والكمال والجمال هى صفة السماء التى تتناسق مع السياق هنا . مع الحق وما فيه من ثبات وكمال وجمال . ومن ثم تجىء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج .

وكذلك الأرض صفحة من كتاب الكون القائم على الحق المستقر الأساس الجميل البهيج :

« والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . .

فالامتداد فى الأرض والرواسى الثابتات والبهجة فى النبات . . تمثل كذلك صفة الاستقرار والثبات والجمال ، التى وجه النظر إليها فى السماء .

وعلى مشهد السماء المبنية المتطاولة الجميلة ، والأرض الممدودة الراسية البهيجة يلمس قلوبهم ، ويوجهها إلى جانب من حكمة الخلق ، ومن عرض صفحات الكون :

« تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » . .

تبصرة تكشف الحجب ، وتنير البصيرة ، وتفتح القلوب ، وتصل الأرواح بهذا الكون العجيب ، وما وراءه من إبداع وحكمة وترتيب . . تبصرة ينتفع بها كل عبد منيب ، يرجع إلى ربه من قريب .

وهذه هى الوصلة بين القلب البشرى وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل . هذه هى الوصلة التى تجعل للنظر فى كتاب الكون ، والتعرف إليه أثرا فى القلب البشرى ، وقيمة فى الحياة البشرية . هذه هى الوصلة التى يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم وبين الإنسان الذى يعرف ويعلم . وهى التى تهملها مناهج البحث التى يسمونها « علمية » فى هذا الزمان . فتقطع ماوصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذى يعيشون فيه . فالناس قطعة من هذا الكون لا تصح حياتهم ولا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون ؛ وإلا حين تقوم الصلة وثيقة بين قلوبهم وإيقاعات هذا الكون الكبير . وكل معرفة بنجم من النجوم ، أو فلك من الأفلاك ، أو خاصة من خواص النبات والحيوان ، أو خواص الكون كله على وجه الإجمال وما فيه من عوالم حية وجامدة — إذا كانت هناك عوالم جامدة أو شىء واحد جامد فى هذا الوجود ! — كل معرفة « علمية » يجب أن تستحيل فى الحال إلى إيقاع فى القلب البشرى ، وإلى ألفة مؤنسة بهذا الكون ، وإلى تعارف يوثق أواصر الصداقة بين الناس والأشياء

والأحياء . وإلى شعور بالوحدة التي تنتهي إلى خالق هذا الكون وما فيه ومن فيه . . وكل معرفة أو علم أو بحث يقف دون هذه الغاية الحية الموجهة المؤثرة في حياة البشر ، هي معرفة ناقصة ، أو علم زائف ، أو بحث عقيم !

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح ، الذي يقرأ بكل لغة ، ويدرك بكل وسيلة ؛ ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة والكوخ ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور . كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده ، فيجد فيه زادا من الحق ، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق . وهو قائم مفتوح في كل آن : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .. ولكن العلم الحديث يطمس هذه التبصرة أو يقطع تلك الوشيجة بين القلب البشري والكون الناطق المبين . لأنه في رؤوس مطموسة رانت عليها خرافة « المنهج العلمي » . المنهج الذي يقطع ما بين الكون والخلائق التي تعيش فيه !

والمنهج الإيماني لا ينقص شيئا من ثمار « المنهج العلمي » في إدراك الحقائق المفردة . ولكنه يزيد عليه ربط هذه الحقائق المفردة بعضها ببعض ، وردها إلى الحقائق الكبرى ، ووصل القلب البشري بها ، أي وصله بنواميس الكون وحقائق الوجود ، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة في مشاعر الناس وحياتهم ؛ لا معلومات جامدة جافة متحيزة في الأذهان لا تفضي لها بشيء من سرها الجميل . والمنهج الإيماني هو الذي يجب أن تكون له الكرة في مجال البحوث والدراسات ليربط الحقائق العلمية التي يهتدي إليها بهذا الرباط الوثيق ..

وبعد هذه اللفتة يمضي في عرض صفحات الحق في كتاب الكون — في طريقه إلى قضية الإحياء والبعث :

« ونزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج » . .

والماء النازل من السماء آية تحيي موات القلوب قبل أن تحيي موات الأرض . ومشهده ذو أثر خاص في القلب لا شك فيه . وليس الأطفال وحدهم هم الذين يفرحون بالمطر ويطيرون له خفافا . فقلوب الكبار الحساسين تستروح هذا المشهد وتصفق له كقلوب الأطفال الأبرياء ، القريبي العهد بالفطرة !

ويصف الماء هنا بالبركة ، ويجعله في يد الله سببا لإنبات جنات الفاكهة وحب الحصيد —

وهو النبات المحصود ـ ومما ينبته به النخل . ويصفها بالسموق والجمال : «والنخل باسقات لها طلع نضيد » ..وزيادة هذا الوصف للطلع مقصودة لإبراز جمال الطلع المنضد فى النخل الباسق . وذلك تمشيا مع جو الحق وظلاله . الحق السامق الجميل .

ويلمس القلوب وهو يمتن عليها بالماء والجنات والحب والنخل والطلع : « رزقا للعباد » .. رزقا يسوق الله سببه ، ويتولى نبته ، ويطلع ثمره . للعباد . وهو المولى . وهم لايقدرون ولايشكرون !

وهنا ينتهى بموكب الكون كله إلى الهدف الأخير :

« وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج » ..

فهى عملية دائمة التكرار فيما حولهم ، مألوفة لهم؛ولكنهم لاينتبهون إليها ولايلحظونها قبل الاعتراض والتعجيب .. كذلك الخروج . . على هذه الوتيرة ، وبهذه السهولة . .. الآن يقولها وقد حشد لها من الإيقاعات الكونية على القلب البشرى ذلك الحشد الطويل الجميل المؤثر الموحى لكل قلب منيب .. وكذلك يعالج القلوب خالق القلوب . .

* * *

ثم يعقب بعرض صفحات من كتاب التاريخ البشرى بعد عرض تلك الصفحات من كتاب الكون، تنطق بمآل المكذبين الذين ماروا كما يمارى هؤلاء المشركون فى قضية البعث، وكذبوا كما يكذبون بالرسل ، فحق عليهم وعيد الله الذى لامفر منه ولامحيد :

« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة ، وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد . أفعيينا بالخلق الأول ؟ بل هم فى لبس من خلق جديد » . .

والرس : البئر : المطوية غير المبنية . والأيكة : الشجر الملتف الكثيف.وأصحاب الأيكة هم ــ فى الغالب ــ قوم شعيب . أما أصحاب الرس فلا بيان عنهم غير هذه الإشارة . وكذلك قوم تبع . وتبع لقب لملوك حمير باليمن .وبقية الأقوام المشار إليهم هنا معروفون لقارىء القرآن .

وواضح أن الغرض من هذه الإشارة السريعة ليس تفصيل أمر هذه الأقوام . ولكنه إيقاع على القلوب بمصارع الغابرين . حين كذبوا الرسل . والذى يلفت النظر هو النص على أن كلا منهم كذب الرسل : « كل كذب الرسل فحق وعيد » . وهى لفتة مقصودة لتقرير

وحدة العقيدة ووحدة الرسالة . فكل من كذب برسول فقد كذب بالرسل أجمعين ؛ لأنه كذب بالرسالة الواحدة التي جاء بها الرسل أجمعون . والرسل إخوة وأمة واحدة وشجرة ضاربة الجذور في أعماق الزمان ، وكل فرع من تلك الشجرة تلخيص لخصائصها ، وصورة منها . ومن يمس منها فرعا فقد مس الأصل وسائر الفروع .. « فحق وعيد »ونالهم مايعرف السامعون !

وفي ظل هذه المصارع يعود إلى القضية التي بها يكذبون . قضية البعث من جديد . فيسأل: « أفعيينا بالخلق الأول ؟ » . . والخلق شاهد حاضر فلاحاجة إلى جواب ! « بل هم في لبس من خلق جديد » .. غير ناظرين إلى شهادة الخلق الأول الموجود ! فماذا يستحق من يكذب وأمامه ذلك الشاهد المشهود ؟ !

* * *

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد .

وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد . .

« ونفخ في الصور ، ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه : هذا ما لدى عتيد . ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد . قال : قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد . قال : لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد . يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » . .

* * *

وهذا هو المقطع الثاني في السورة : استطراد مع قضية البعث ، التي عالجها الشوط الأول ؛ وعلاج للقلوب المكذبة بلمسات جديدة ، ولكنها رهيبة مخيفة . إنها تلك الرقابة التي تحدثنا عنها في تقديم السورة . ومشاهدها التي تمثلها وتشخصها . ثم مشهد الموت وسكراته . ثم مشهد

الحساب وعرض السجلات . ثم مشهد جهنم فاغرة فاها تتلمظ كلما ألقى فيها وقودها البشرى تقول : « هل من مزيد ؟ » . وإلى جواره مشهد الجنة والنعيم والتكريم .

إنها رحلة واحدة تبدأ من الميلاد ، وتمر بالموت ، وتنتهى بالبعث والحساب . رحلة واحدة متصلة بلا توقف ؛ ترسم للقلب البشرى طريقه الوحيد الذى لا فكاك عنه ولا محيد ؛ وهو من أول الطريق إلى آخره فى قبضة الله لايتملص ولا يتفلت ، وتحت رقابته التى لا تفتر ولا تغفل .

وإنها لرحلة رهيبة تملأ الحس روعة ورهبة . وكيف بإنسان فى قبضة الجبار ، المطلع على ذات الصدور ؟ وكيف بإنسان طالبه هو الواحد الديان ، الذى لا ينسى ولا يغفل ولا ينام !

إنه ليرجف ويضطرب ويفقد توازنه وتماسكه ، حين يشعر أن السلطان فى الأرض يتتبعه بجواسيسه وعيونه ، ويراقبه فى حركته وسكونه . وسلطان الأرض مهما تكن عيونه لايراقب إلا الحركة الظاهرة . وهو يحتمى منه إذا آوى إلى داره ، وإذا أغلق عليه بابه ، أو إذا أغلق فمه ! أما قبضة الجبار فهى مسلطة عليه أينما حل وأينما سار . وأما رقابة الله فهى مسلطة على الضمائر والأسرار . . فكيف ؟ كيف بهذا الإنسان فى هذه القبضة وتحت هذه الرقابة ؟ !

* * *

« ولقد خلقنا الإنسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . .

إن ابتداء الآية : « ولقد خلقنا الإنسان » . . يشير إلى المقتضى الضمنى للعبارة . فصانع الآلة أدرى بتركيبها وأسرارها . وهو ليس بخالقها لأنه لم ينشىء مادتها ، ولم يزد على تشكيلها وتركيبها . فكيف بالمنشىء الموجد الخالق؟ إن الإنسان خارج من يد الله أصلا؛ فهو مكشوف الكنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره . .

« ونعلم ما توسوس به نفسه » . . وهكذا يجد الإنسان نفسه مكشوفة لا يحجبها ستر ، وكل ما فيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله ، تمهيدا ليوم الحساب الذى ينكره ويجحده !

« ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » . . الوريد الذى يجرى فيه دمه . وهو تعبير يمثل ويصور القبضة المالكة ، والرقابة المباشرة . وحين يتصور الإنسان هذه الحقيقة لابد يرتعش ويحاسب . ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها . بل ما جرؤ على هاجسة فى الضمير لا تنال القبول . وإنها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان فى

حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة. ولكن القرآن يستطرد فى إحكام الرقابة. فإذا الإنسان يعيش ويتحرك وينام ويأكل ويشرب ويتحدث ويصمت ويقطع الرحلة كلها بين ملكين موكلين به ، عن اليمين وعن الشمال ، يتلقيان منه كل كلمة وكل حركة ويسجلانها فور وقوعها :

« إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد · مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ». أى رقيب حاضر . لا كما يتبادر إلى الأذهان أن اسمى الملكين رقيب ، وعتيد !

ونحن لاندرى كيف يسجلان . ولاداعى للتخيلات التى لاتقوم على أساس . فموقفنا بإزاء هذه الغيبيات أن نتلقاها كما هى ، ونؤمن بمدلولها دون البحث فى كيفيتها ، التى لاتفيدنامعرفتها فى شىء . فضلا على أنها غير داخلة فى حدود تجاربنا ولاممارفنا البشرية .

ولقد عرفنا نحن ـ فى حدود علمنا البشرى الظاهر ـ وسائل للتسجيل لم تكن تخطر لأجدادنا على بال . وهى تسجل الحركة والنبرة كالأشرطة الناطقة وأشرطة السينما وأشرطة التليفزيون . وهذا كله فى محيطنا نحن البشر . فلا داعى من باب أولى أن نقيد الملائكة بطريقة تسجيل معينة مستمدة من تصوراتنا البشرية المحدودة، البعيدة نهائيا عن ذلك العالم المجهول لنا، والذى لانعرف عنه إلاماغبرنا به الله . بلازيادة !

وحسبنا أن نعيش فى ظلال هذه الحقيقةالمصورة ، وأن نستشعر ونحن نهم بأيةحركة وبأية كلة أن عن يميننا وعن شمالنا من يسجل علينا الكلمة والحركة ؛ لتكون فى سجل حسابنا ، بين يدى الله الذى لايضيع عنده فتيل ولاقطمير .

حسبنا أن نعيش فى ظل هذه الحقيقة الرهيبة . وهى حقيقة . ولولم ندرك نحن كيفيتها . وهى كائنة فى صورة مامن الصور ، ولامفر من وجودها ، وقد أنبأنا الله بها لنحسب حسابها. لالننفق الجهد عبثا فى معرفة كيفيتها !

والذين انتفعوا بهذا القرآن ، وبتوجيهات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الخاصة بحقائق القرآن ، كان هذا سبيلهم : أن يشعروا ، وأن يعملوا وفق ماشعروا ..

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا محمد ابن عمرو ابن علقمة الليثى عن أبيه عن جده علقمة ، عن بلال ابن الحارث المزنى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، مايظن أن تبلغ مابلغت ،

يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى مايظن أن تبلغ مابلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه » .. قال : فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال ابن الحارث . (ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث محمد ابن عمرو به وقال الترمذى : حسن صحيح)

وحكى عن الإمام أحمد أنه كان فى سكرات الموت يئن . فسمع أن الأنين يكتب . فسكت حتى فاضت روحه رضوان الله عليه .

وهكذا كان أولئك الرجال يتلقون هذه الحقيقة فيعيشون بها فى يقين .

* * *

تلك صفحة الحياة ، ووراءها فى كتاب الإنسان صفحة الاحتضار :

« وجاءت سكرة الموت بالحق . ذلك ما كنت منه تحيد » ..

والموت أشد مايحاول المخلوق البشرى أن يروغ منه ، أويبعد شبحه عن خاطره . ولكن أنى له ذلك : والموت طالب لايمل الطلب ، ولايبطىء الخطى ، ولايخلف الميعاد ؟ وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب فى الأوصال ! وبينما المشهد معروض يسمع الإنسان : « ذلك ما كنت منه تحيد » . وإنه ليرجف لصداها وهو بعد فى عالم الحياة ! فكيف به حين تقال له وهو يعانى السكرات ! وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : « سبحان الله . إن للموت لسكرات » .. يقولها وهو قد اختار الرفيق الأعلى واشتاق إلى لقاء الله . فكيف بمن عداه ؟

ويلفت النظر فى التعبير ذكر كلمة الحق : « وجاءت سكرة الموت بالحق » . . وهى توحى بأن النفس البشرية ترى الحق كاملا وهى فى سكرات الموت . تراه بلا حجاب ، وتدرك منه ما كانت تجهل وما كانت تجحد ، ولكن بعد فوات الأوان ، حين لا تنفع رؤية ، ولا يجدى إدراك ، ولا تقبل توبة ، ولا يحسب إيمان . وذلك الحق هو الذى كذبوا به فانتهوا إلى الأمر المريج ! . . وحين يدركونه ويصدقون به لا يجدى شيئا ولا يفيد !

* * *

ومن سكرة الموت ، إلى وهلة الحشر ، وهول الحساب :

« ونفخ فى الصور . ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه : هذا مالدى عتيد. ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد . قال قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد . قال : لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » . .

وهو مشهد يكفى استحضاره فى النفس لتقضى رحلتها كلها على الأرض فى توجس وحذر وارتقاب . وقد قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له ؟ » قالوا : يارسول الله ، كيف نقول ؟ قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل [١] . .

« وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » . . جاءت كل نفس . فالنفس هنا هى التى تحاسب ، وهى التى تتلقى الجزاء . ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها . قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها فى الدنيا . وقد يكونان غيرهما . والأول أرجح . وهو مشهد أشبه شىء بالسوق للمحاكمة . ولكن بين يدى الجبار .

وفى هذا الموقف العصيب يقال له : « لقد كنت فى غفلة من هذا . فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » . . قوى لا يحجبه حجاب ، وهذا هو الموعد الذى غفلت عنه ، وهذا هو الموقف الذى لم تحسب حسابه ، وهذه هى النهاية التى كنت لا تتوقعها . فالآن فانظر . فبصرك اليوم حديد !

هنا يتقدم قرينه . والأرجح أنه الشهيد الذى يحمل سجل حياته : «وقال قرينه هذا مالدى عتيد » . . حاضر مهيأ معد . لا يحتاج إلى تهيئة أو إعداد !

ولايذكر السياق شيئا عن مراجعة هذا السجل تعجيلا بتوقيع الحكم وتنفيذه. إنما يذكر مباشرة النطق العلوى الكريم ، للملكين الحافظين : السائق والشهيد : « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب. الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد» . .

---

(١) رواه الترمذى.

وذكر هذه النعوت يزيد فى حرج الموقف وشدته . فهو دلالة غضب الجبار القهار فى الموقف العصيب الرهيب ؛ وهى نعوت قبيحة مستحقة لتشديد العقوبة : كفار . عنيد . مناع للخير . معتد . مريب . الذى جعل مع الله إلها آخر . وتنتهى بتوكيد الأمر الذى لا يحتاج إلى توكيد : « فألقياه فى العذاب الشديد » بيانا لمكانه من جهنم التى بدأ الأمر بإلقائه فيها .

عندئذ يفزع قرينه ويرتجف ، ويبادر إلى إبعاد ظل التهمة عن نفسه ، بما أنه كان مصاحبا له وقرينا : « قال قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد » . . وربما كان القرين هنا غير القرين الأول الذى قدم السجلات . ربما كان هو الشيطان الموكل به ليغويه . وهو يتبرأ من إطغائه؛ ويقرر أنه وجده ضالا من عند نفسه ، فاستمع لغوايته ! وفى القرآن مشاهد مشابهة يتبرأ فيها القرين الشيطانى من القرين الإنسانى على هذا النحو . على أن الفرض الأول غير مستبعد . فقد يكون القرين هو الملك صاحب السجل . ولكن هول الموقف يجعله يبادر إلى التبرؤ — وهو برىء — ليبين أنه مع صحبته لهذا الشقى — فإنه لم تكن له يد فى أى مما كان منه . وتبرؤ البرىء أدل على الهول المزلزل والكرب المخيف .

هنا يجىء القول الفصل ، فينهى كل قول : « قال : لا تختصموا لدىّ وقد قدمت إليكم بالوعيد — ما يبدل القول لدىّ وما أنا بظلاّم للعبيد » .. فالمقام ليس مقام اختصام . وقد سبق الوعيد محددا جزاء كل عمل . وكل شىء مسجل لا يبدل . ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل. ولا يظلم أحد ، فالمجازى هو الحكم العدل .

بهذا ينتهى مشهد الحساب الرهيب بهوله وشدته؛ ولكن المشهد كله لا ينتهى . بل يكشف السياق عن جانب منه مخيف :

« يوم نقول لجهنم : هل امتلأت : وتقول : هل من مزيد ؟ » .

إن المشهد كله مشهد حوار . فتعرض جهنم فيه فى معرض الحوار وبهذا السؤال والجواب يتجلى مشهد عجيب رهيب . . هـذا هو كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . . . هؤلاء هم كثرة تقذف فى جهنم تباعا ، وتتكدس ركاما . ثم تنادى جهنم : « هل امتلأت ؟ » وا كتفيت ! ولكنها تتلظ وتتحرق ، وتقول فى كظة الأكول النهم : «هل من مزيد ؟!».. فيالله للهول الرعيب !

وعلى الضفة الأخرى من هذا الهول مشهد آخر وديع أليف ، رضىّ جميل . إنه مشهد الجنة ، تقرب من المتقين ، حتى تتراءى لهم من قريب ، مع الترحيب والتكريم : .

« وأزلفت الجنة للمتقين غير بعد . هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد ».

والتكريم فى كل كلمة وفى كل حركة . فالجنة تقرب وتزلف ، فلا يكلفون مشقة السير إليها ، بل هى التى تجىء : « غير بعيد » ! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة : « هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب » .. فيوصفون هذه الصفة من الملأ الأعلى ، ويعلمون أنهم فى ميزان الله أوابون ، حفيظون، يخشون الرحمان ولم يشهدوه ، منيبون إلى ربهم طائعون.

ثم يؤذن لهم بالدخول بسلام لغير ماخروج : « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » ..

ثم يؤذن فى الملأ الأعلى، تنويها بشأن القوم ، وإعلانا عالهم عند ربهم من نصيب غير محدود : « لهم مايشاءون فيها ، ولدينا مزيد » .. فمهما اقترحوا فهم لايبلغون ماأعد لهم . فالمزيد من ربهم غير محدود . .

* * *

ثم يجىء المقطع الأخير فى السورة ، كأنه الإيقاع الأخير فى اللحن ، يعيد أقوى نغماته فى لمس سريع . فيه لمسة التاريخ ومصارع الغابرين . وفيه لمسة الكون المفتوح وكتابه المبين . وفيه لمسة البعث والحشر فى مشهد جديد. ومع هذه اللمسات التوجيه الموحى العميق للمشاعر والقلوب :

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا ، فنقبوا فى البلاد هل من محيص ؟ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أوألقى السمع وهو شهيد. ولقد خلقنا السماوات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ومامسنا من لغوب . فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود . واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا . ذلك حشر علينا يسير . نحن أعلم بما يقولون، وماأنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ..

* * *

ومع أن هذه اللمسات كلها قد سبقت فى سياق السورة ، إلا أنها حين تعرض فى الختام تعرض جديدة الإيقاع جديدة الوقع . بهذا التركيز وبهذه السرعة . ويكون لها فى الحس مذاق

آخر غير مذاقها وهي مبسوطة مفصلة من قبل في السورة . وهذه هي خصيصة القرآن العجيبة!

قال من قبل : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد » ..

وقال هنا : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا ، فنقبوا في البلاد . هل من محيص » ؟

الحقيقة التي يشير إليها هي هي . ولكنها في صورتها الجديدة غيرها في صورتها الأولى . ثم يضيف إليها حركة القرون وهي تتقلب في البلاد ، وتنقب عن أسباب الحياة ،وهي مأخوذة في القبضة التي لايفلت منها أحد ، ولامفر منها ولافكاك : « فهل من محص » ؟ . .

وعقب عليها بما يزيدها جدة وحيوية :

« إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » . .

وفي مصارع الغابرين ذكرى . ذكرى لمن كان له قلب . فمن لا تذكره هذه اللمسة فهو الذي مات قلبه أو لم يرزق قلبا على الإطلاق ! لا بل إنه ليكفي للذكرى والاعتبار أن يكون هناك سمع يلقى إلى القصة بإنصات ووعى ، فتفعل القصة فعلها في النفوس .. وإنه للحق . فالنفس البشرية شديدة الحساسية بمصارع الغابرين ، وأقل يقظة فيها وأقل تفتح كافيان لاستجاشة الذكريات والتصورات الموحية في مثل هذه المواقف المؤثرة المثيرة .

وعرض من قبل صفحات من كتاب الكون : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . . .

وقال هنا : « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ومامسنا من لغوب » ..

فأضاف هذه الحقيقة الجديدة إلى جانب اللمسة الأولى . حقيقة : « وما مسنا من لغوب » : . وهي توحي بيسر الخلق والإنشاء في هذا الخلق الهائل . فكيف بإحياء الموتى وهو بالقياس إلى السماوات والأرض أمر هين صغير ؟

وعقب عليها كذلك بإيحاء جديد وظل جديد :

« فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » ..

وطلوع الشمس وغروبها ومشهد الليل الذى يعقب الغروب.. كلها ظواهر مرتبطة بالسماوات والأرض. وهو يربط إليها التسبيح والحمد والسجود. ويتحدث فى ظلالها عن الصبر على ما يقولون من إنكار للبعث وجحود بقدرة الله على الإحياء والإعادة . فإذا جو جديد يحيط بتلك اللمسة المكررة . جو الصبر والحمد والتسبيح والسجود . موصولا كل ذلك بصفحة الكون وظواهر الوجود ، تثور فى الحس كلما نظر إلى السماوات والأرض ؛ وكلما رأى مطلع الشمس ، أو مقدم الليل ؛ وكلما سجد لله فى شروق أو غروب ...

ثم . . لمسة جديدة ترتبط كذلك بالصفحة الكونية المعروضة . . اصبر وسبح واسجد . وأنت فى حالة انتظار وتوقع للأمر الهائل الجلل ، المتوقع فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار. لا يغفل عنه إلا الغافلون . الأمر الذى تدور عليه السورة كلها ، وهو موضوعها الأصيل :

« واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج. إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا . ذلك حشر علينا يسير » ..

وإنه لمشهد جديد مثير ، لذلك اليوم العسير. ولقد عبر عنه أول مرة فى صورة أخرى ومشهد آخر فى قوله : « ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ..» الخ

فأما هنا فعبر عن النفخة بالصيحة. وصور مشهد الخروج . ومشهد تشقق الأرض عنهم . هذه الخلائق التى غبرت فى تاريخ الحياة كلها إلى نهاية الرحلة . تشقق القبور التى لا تحصى . والتى تعاقب فيها الموتى . كما يقول المعرى :

رب قبر قد صار قبرا مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين فى طويل الآجال والآماد

كلها تشقق ، وتتكشف عن أجساد ورفات وعظام وذرات تائهة أو حائلة فى مسارب الأرض ، لا يعرف مقرها إلا الله .. وإنه لمشهد عجيب لا يأتى عليه الخيال !

وفى ظلال هذا المشهد الثائر المثير يقرر الحقيقة التى فيها يجادلون وبها يجحدون : « إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير » .. « ذلك حشر علينا يسير » .. فى أنسب وقت للتقرير . .

وفى ظلال هذا المشهد كذلك يتوجه بالتثبيت للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ تجاه جدلهم وتكذيبهم فى هذه الحقيقة الواضحة المشهودة بعين الضمير :

« نحن أعلم بما يقولون . وما أنت عليهم بجبار . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ..

« نحن أعلم بما يقولون » .. وهذا حسبك . فللعلم عواقبة عليهم .. وهو تهديد مخيف ملفوف .

« وماأنت عليهم بجبار » .. فترغمهم على الإيمان والتصديق . فالأمر فى هذا ليس إليك. إنما هو لنا نحن ، ونحن عليهم رقباء وبهم موكلون ..

« فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .. والقرآن يهز القلوب ويزلزلها فلايثبت له قلب يعى ويخاف مايواجهه به من حقائق ترجف لها القلوب . على ذلك النحو العجيب ..

وحين تعرض مثل هذه السورة ، فإنها لاتحتاج إلى جبار يلوى الأعناق على الإيمان . ففيها من القوة والسلطان مالايملكه الجبارون . وفيها من الإيقاعات على القلب البشرى ماهو أشد من سياط الجبارين !

وصدق الله العظيم ..

انتهى الجزء السادس والعشرون ويليه الجزء السابع والعشرون مبدوءا بسورة الذاريات [1]

(١) سورة الذاريات مشتركة بين الجزئين . وقد آثرنا عرضها بكاملها — بعون الله — فى الجزء السابع والعشرين .

كتب المؤلف

الكتاب	الطبعة	الناشر
١ ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية
٢ ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة خامسة)	» » » »
٣ ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(» ثانية)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٤ ـ السلام العالمى والإسلام	(» ثانية)	مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعابدين
٥ ـ دراسات إسلامية	(» أولى)	مكتبة لجنة الشباب المسلم
٦ ـ التصوير الفنى فى القرآن	(» رابعة)	دار المعارف
٧ ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(» ثالثة)	» »
٨ ـ المدينة المسحورة	(» ثانية)	» »
٩ ـ النقد الأدبى: أصوله ومناهجه	(» ثانية)	دار الفكر العربى
١٠ ـ أشواك	(» أولى)	دار سعد مصر بالفجالة
١١ ـ طفل من القرية	(» »)	لجنة النشر للجامعيين
١٢ ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	» » »
١٣ ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	» » »
١٤ ـ الشاطئ المجهول	(شعر)	... نفد
١٥ ـ كتب وشخصيات	(نقد)	... »
١٦ ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(»)	... »
١٧ ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(»)	... »

الكتب التالية:

(١) نحو مجتمع إسلامى — (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر) — (٤) قافلة الرقيق (شعر)